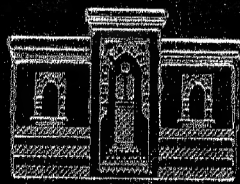


دار الكتب والوثائق القومية
تحت إشراف

مجاورة الأديان والفلسفة

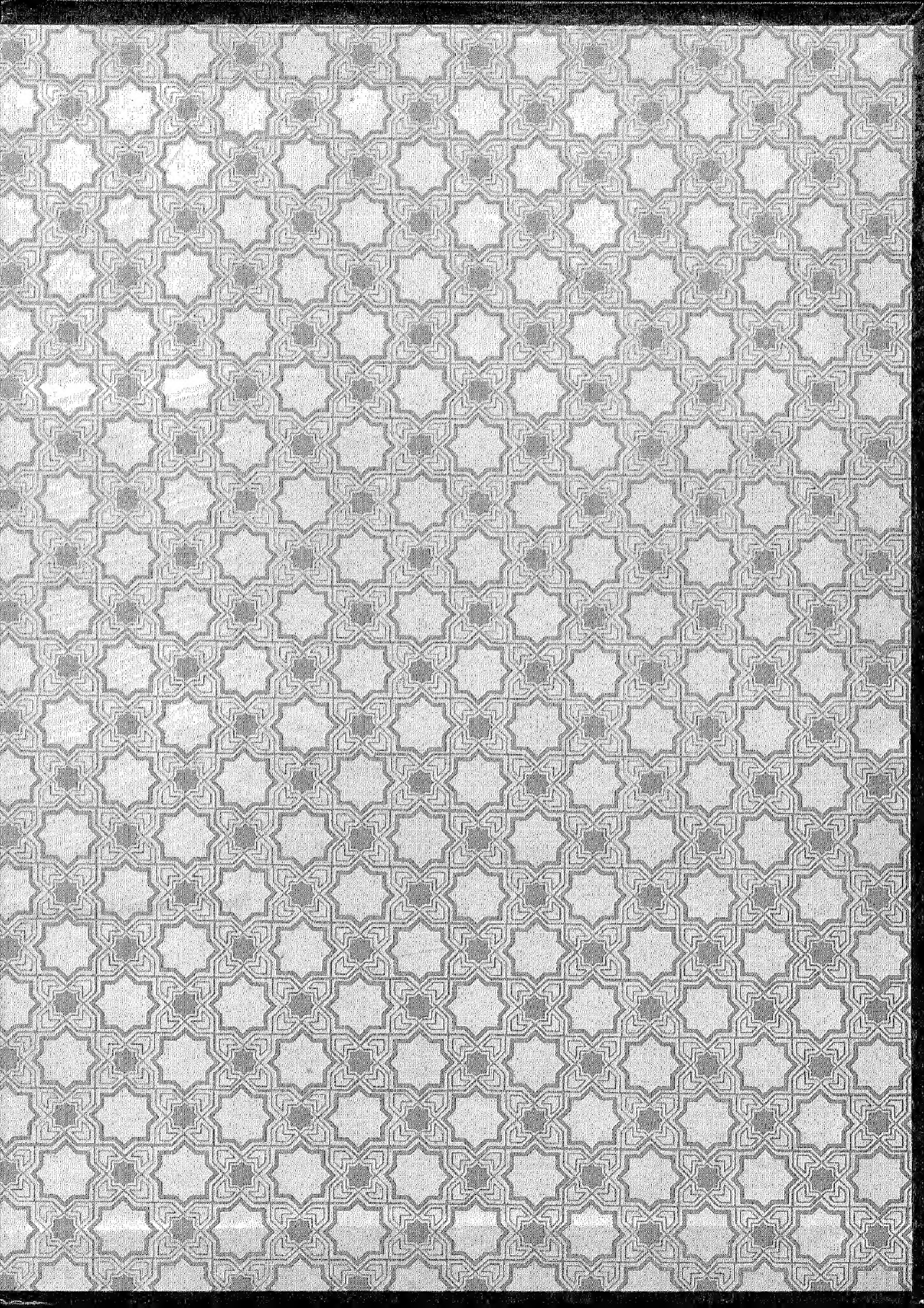
للكاتب الفيلسوف والمؤرخ اللغوي
أرنست ريسان

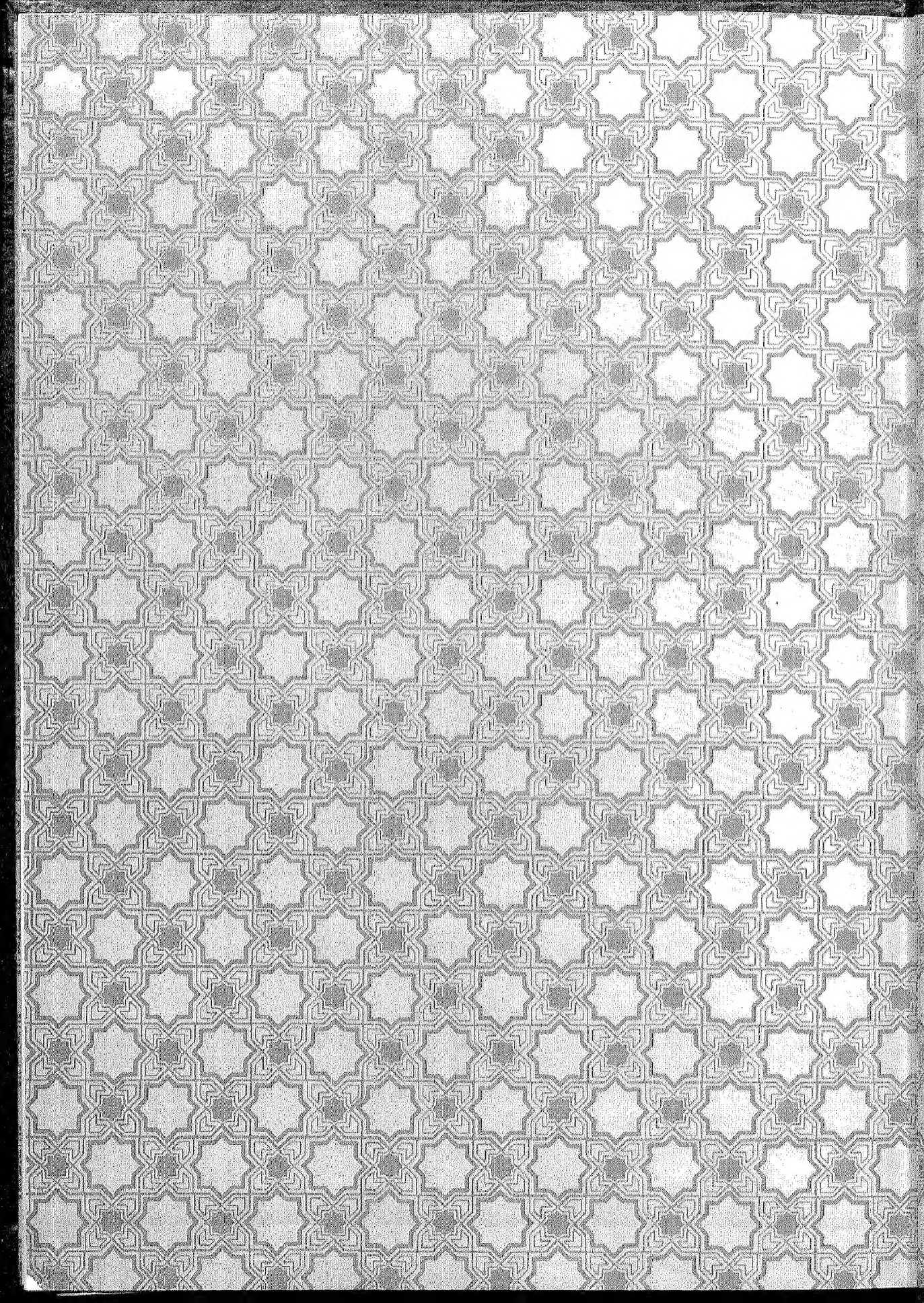
تمت لها إلى العربية
على أدم



مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة

١٩٩٨





مَجَازُ رَأْيِ نَبِيَّ الْفَلَسَفِيَّةِ

رينان ، أرست .

محاورات رينان الفلسفية / لأرست رينان ، نقلها إلى العربية
على أدهم . - القاهرة : مطبعة دار الكتب ، ١٩٩٨ .

١٦٢ ص ؛ ٢٤ سم .

تدمك ١ - ٠٠٨٤ - ١٩ - ٩٧٧

١٩٠

الطبعة الأولى

بمطبعة دار العصور للطبع والنشر

١٩٢٩م

الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب المصرية

١٩٩٨م

دار الكتب والأوقاف بالقاهرة

مجاورات نيناز الفلسفية

للكاتب الفيلسوف والمؤرخ الغوى

أرست ريناه

نقلها الى العربية

على أدهم



مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٩٨



الفيلسوف ارنست رينان

تصدير

لارنست رينان مكانة ملحوظة الجلال في تلك المنظومة
الفريدة من مبرزى الكتاب، وأعلام الفلاسفة، وأعيان المؤرخين،
ونوابغ المستشرقين، التي أزدان بها الأدب الفرنسى فى القرن
التاسع عشر، وبعد صيته وعظم تأثيره واتسع ثراؤه. ورينان من
أحق رجالات الأدب الفرنسى بالعناية وأجدرهم بالدرس لأنه
نسيج وحده فى تعدد مناحى الفكر، وتنوع المواهب، فهو فيلسوف
يعالج الموضوعات الكبرى، وكاتب خلاب الأسلوب، وناقد نافذ
البصيرة، ومؤرخ موفق الرويئة، وقد جمع بين عمق الاحساس
الشعرى واستفاضة المعرفة، وبين سعة العقل وحرية الفكر وسراوة
الأخلاق والقداسة، وكان لكل فكرة من الأفكار فى عقله
مدار، ولكل عاطفة بشرية فى قلبه صدى وأن كان يدمن تصفح
الأفكار دون أن يستأسرها ويملك العواطف دون أن تتملكه،
وقد ترك طابع هذه الصفات العقلية العالية، والمتنابخ الخلقية
الحميدة، على آثار فنية رائعة حظها من التجويد وفير، ونصيبها من
الخلود كبير، وهى علالة المفكر فى أحوال المجتمع وغاية الوجود،
وسمى المسافر فى غيابات التاريخ، ومؤنس الحائر فى موحشات
المباحث اللغوية .

وليس الاعجاب برينان وتقدير عبقريته موقوفاً على قومه
وخدمهم فقد ملأت شهرته الاقطار وملأت العقول والاسماع،
ورفعت الانسانية الى مرتبة أساتذة الحكمة الخالدين ، الذين تمحروا
على آثارهم وتصون أسمهم عن الأغفال والنسيان ، وتلمس عندم
الهبات الروحية والعزاء النفسى . على أن رينان كسائر كبار الكتاب،
قوته متوقفة على قوة عصره ، وكما أنه لا معنى للكلمة فى غير
وضعها ، ولا قيمة للنعمة فى غير لحنها ، كذلك الكتاب العظماء
لا يمكن أن يفسر عريبتهم ونستوضح معنهم بغير الرجوع الى العصر
الذى اشتمل عليهم . ولئن كنا نحصر النظر فى حياتهم ونقصر
البحث على أفكارهم ومراميمهم ، فما ذاك إلا لأن النزعات الفكرية
الغالبة على عصر من العصور لا تكاد تبدو بين غبار الأهواء العمياء
والخوافز المظلمة . وإنما تظهر جليلة ناطقة فى نفوس كبار الكتاب .
والكاتب الكبير يشرب عصره ويستوعب كل محصولاته الفكرية
ويجمع تقاريق نزعاته ، ومن أكبر مميزاته أنه يحسن تمثيل عصره
ويبدل عليه أوضح دلالة . ومن الدروس النافعة التى يتعلمها الانسان
من الفكر الحديث أن كل مفكرى عصر من العصور مهما تآدت
بهم أسباب التفرقة يعبرون عن جوانب مختلفة لفكرة واحدة ،
وأشد ما يتجلى ذلك فى المذاهب الفلسفية . وليس التفوق فى
الكتابة ، وتبوؤ الصدارة فى ديوان الأدب متوقفاً على

الابتكار بالمعنى الذى ألف ترديده بعض الكتاب الذين يحاولون أن يدخلوا على الناس أن الكاتب المبتكر مثل العنكبوت ينسج خيوطه من أمعائه . وإنما الكاتب مثل النحل يجمع الشهد الذى يجمعه من مختلف الازهار وشتى الحقول .

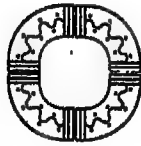
تلقاء ذلك رأيت أن أنسب طريقة أهدبها السبيل الى فهم رينان بعض الشيء هى أن أكتب مقدمة موجزة أشير فيها الى موقفه من الحركة الفكرية التى قامت فى القرن التاسع عشر واكشف عن تأثيرها فيه . وهو بحث عويص مشعب الأطراف كنت أؤثر السلامة على التورط فى غمراته . ولكنى أعلم العلم كله أن المترجم فى هذا البلد من واجبه أن يكون شارحا الى حد ما ، ومن استيفاءات عمله أن يضع القارئ على النهج وينير له الطريق ، وفى غير بلادنا يتولى الاضطلاع بهذه المهمة الناقد الصحفي ، ولكن الصحافة عندنا لا تزال قايلة العناية بنقد الآثار الادبية ، لذلك كتبت هذه المقدمة على سبيل الاضاءة ليس غير

وقد ترجمت هذا الكتاب لأنى قرأته فاعجبت به . وراقبى منه تسهيله لمستوعرات الفاسفة . واشاعته النور فى النواحي التى يخيم عليها الظلام السرمدى ، فضلا عما فيه من مادة صالحة للتفكير الفلسفى وغذاء للعقول المتطلعة ، وسيدشرف القارئ منه على عقل من أوسع العقول وارقاها ثقافة ، يواجه فى صراحة مستحبة

أقدس المسائل ويتناول المشكلات المستعصية ، ويروى لنا بأمانة
نادرة آراءه وأحلامه ويقينياته وشكوكه وهواجس نفسه وطمحاته
خياله . واعلم أن من الشباب المتعلم لفيما يقسمون البحوث الفكرية
الى قسمين : قسم الضروريات وقسم الكماليات . وهم يلحقون مثل
هذا الكتاب بالقسم الاخير . وليس من همى استنزاهم عن هذا
التقسيم وتهجين هذا المذهب . وانى أعرف قصورى بازاء منطقهم
القويم منطق الفائدة والمصاحبة وتقدير الامور بالدرهم والدينار ووزنها
بالقيراط والكميال . غير انى أقول أن ما يراه فريق من الناس من
قبيل الكماليات قد يراه غيرهم من صميم الضروريات والعكس
بالعكس ، ومن الناس من يرون أن الفكرة غير المنظورة أصدق
وجودا من المادة الملموسة

وقد تحرّيت جهدى الامانة فى النقل ، لأنى لم أستطع أن
اسيغ فكرة التصرف فى الترجمة . بيد أن الناقد المتشدد الولوع
بتصيد الهفوات والوقوع على المعايب من تحريف وتشويه أو
سهو وسوء فهم قد يصيب فى هذه الترجمة شيئا من بغيته . لانه
ليس فى وسع مترجمهما أوتى من البسطة والتمكين أن يدعى
البصمة . على أنى لا أحسب مثل هذا الناقد أهلا لأن ترف اليه
التهانى وتدق له البشائر . وقد يثبت بتقده أنه فارس ميدان ومحلى
الحلبة ولكن طريقته لاتدل على أنه يملك هبة النقد السامية

والنظرة الفنية الشاملة التي ترفع الناقد الى مستوى الخالقين العظماء .
وأرى أن مقياس الاجادة في الترجمة ، هو القدرة على التشبع بروح
المؤلف ، والناقد الفني هو الذى ينظر الى الترجمة من حيث هي
قطعة فنية تلائم روح المؤلف او تناكرها وتعرب عنها أو تطمس
معالمها . ويسرنى أن تقاس هذه الترجمة بهذا المقياس سواء أسقطت
به أم قامت، وشال بها الميزان أم رجح . فاذا كنت قد وقفت في
سبيل ذلك بمض التوفيق فسيكون في ذلك عزاء لى على ما احتملت
من عناء وما أنفقت من جهد . واذا كان الفشل نصيبى فما يسرنى
أن يعيد غيرى الكرة ويتم ما حاولت أن أبدأه .



مقدمة المعرب

خصائص العصور التاريخية — نضوج الحاسة التاريخية في القرن التاسع عشر — تأثير ثقافة القرن التاسع عشر بالثورة الفرنسية ونهضة الفكر الألماني — أثر الروح الرومانتك — الفكرة الرئيسية في الفلسفة الألمانية — الحركة الفلسفية من كانت الى هجل — ظهور كارليل ورينان وتأثيرها بالفكر الألماني — وجوه الشبه والخلاف بين كارليل ورينان — أثر الروح العلمية في رينان — فلسفة رينان وتأثيرها بفلسفة هجل — رينان ونزعة البلاتونزم — حياة رينان وأخلاقه — رأيه في الساميين

تاريخ الإنسانية كل حي مترابط الاجزاء متصل الحلقات بحيث لا نستطيع أن نفهم مظهرا من مظاهره حق الفهم اذا نظرنا اليه منفردا مبتوت الصلة بسائر المظاهر. فليس يكفي اذا حاولنا أن نفقه تاريخ العرب، وتقف على سر تاريخ الرومان ونصل الى صميم تاريخ اليونان، أن نلم بتاريخ كل أمة من هذه الامم على حدة كأنها قامت في غفلة من الدهر وبمعزل عن الامم، ولا معدى لنا اذا أردنا أن نجيد البحث ونسدد النظر عن مراقبة اتصال الحوادث العالمية وتسلسل الحركات التاريخية، والوقوف على مدى تأثير كل حضارة في الحضارات التي تليها ومعرفة ما استمدته الحضارة من سوائف الحضارات وغابر الامم وما ابتكرته من تفكيرها الخاص، ولو أننا قصرنا النظر على تاريخ أمة بعينها لضل منا الرأي

واعتور الشطط أحكامنا وكانت مظنة المبالغة وهدف التعصب *
وغم علينا تفسير الكثير من أحوال المجتمع وملايساته وقوانينه.
وشرائعه وسائر مقومات حضارته ومشخصات كيانه .

وعندما نرسل النظر في التاريخ مجتمعا متلاحم الاجزاء نلمح
وحدته الحية ونرى الحضارة العامة تغذ السير متنقلة بين مختلف
الامم كالنهر المديد تمده الروافد والاخوار حتى تصب في محيط الابد.
العظيم الذى ينتهى عنده كل جهد . وندرك أن الحضارة شيء متحرك
غير مستقر بحيث لا يمكن أن نلمحها الا في نموها المتزايد وتطورها .
المستمر ولولا ذلك لاستسمرت علينا مظاهر الاشياء وغابت عنا
أصولها الواشجة في القدم . وهذه النظرة العامة للتاريخ خليفة بان
تردنا الى الحق وتوحى اليها الاعتدال في الحكم اذ تبصرنا في مجرى
الحوادث العام مكان الحضارة التى قد تحتاج بنفوسنا الرغبة في إثارتها
وتفخيم أمرها والتعصب لجانبها

واذا الفنا هذه النظرة واستضأناها في بحوثنا التاريخية :
استبان لنا مميزات كل حضارة وخصائص كل دور من أدوارها
وتجلت لنا الفروق بين الحضارات على أتم ما يكون في آثارها
الادبية ومظاهر حياتها الروحية . فان لكل حضارة لونا خاصا من
ألوان الادب والفن تتخذ للتعبير عن ذاتها وتصوير حياتها فتتمثل
فيه نوازع النفوس ووجاهات التفكير ، وتصلح ظروفها الخاصة

وقوتها المكنونة على تأكيدها هذا اللون حتى يصبح شارها المعروفة
وميسمها الواضح ، ولكل دور من أدوارها صفته المنفردة وعقليته
المتنازة ونصيبه الخاص

من أمثلة ذلك القرن التاسع عشر . فإن لونه الخاص وصفته التي
تفرد بها هي النزعة التاريخية . ولقد كان هذا القرن هو العصر الذهبي
لدراسة التاريخ . ولقد بز في ذلك سائر العصور وازرى بكل
جهودها في هذه السبيل . ولم يجمع عصر واحد من عصور الدنيا
ما جمعه هذا القرن من عظماء المؤرخين . ولقد كان كبار كتاب هذا
القرن يبدأون بالتاريخ وينتهون به ويبتئون فلسفتهم الاجتماعية على
الاستنباط التاريخي ويدعمون آراءهم بالشواهد التاريخية والأسانيـد
الاثـرية . وتعددت طرائق تفسير التاريخ ، فمن مفسر له من
الوجهة الروحية الى مفسر له من الناحية المادية . ومن مؤرخ
شعبي النزعة إلى آخر ارسـتوقراطى المرنى . ومن مصـور لحـوادث
التاريخ بارع ، الى محلل لعناصره قدير . وكان خـول الشعراء يستـمعرون
من صورـه ويحيون شخصياتـه . وكان المصلحون يحثون على دراستـه
للعـظ والعبرة وقادة السياسة يديرون فيه النظر للحـكمة والدراية .
ووجه اليه الروائيون شيئاً غير قليل من مجهودهم وأفسح له الفلاسفة
مكاناً ممتازاً في فلسفتهم

وتظهر ميزة هذه النزعة التاريخية في أبهر مجالها عندما تقابل

حالة الحياة عند اليونان بحالة القرن التاسع عشر . فقد كانت الحياة اليونانية قائمة على تجاهل هذه النزعة وإهمال شأنها . وبينما كان الإنسان في القرن التاسع عشر ، يرى أن حياته حلقة من سلسلة حياة طويلة سائرة من آلاف السنين . كان اليوناني يرى نفسه كلية تامة ووحدة مستقلة . وكان اليونانيون يصفون على الماضي ظلال الأساطير ويحيطونه بآثار من الخلود فلم يكن عجيباً عندهم أن ينتسب الاسكندر إلى دايونيزاس ، ولا إن يلحق قيصر نسبته بفينوس ، فتجور منطقة الاسطورة على عالم التاريخ ويغيب الحق التاريخي في جو الرموز والاسرار . وكان الحاضر هو مناط براعة مؤرخي اليونان وكانوا يجيدون فهمه وتصويره وكانت تنقصهم قوة مشاهدة الماضي وإحياء صوره على حين أن أعظم الطرف التاريخية التي خلفها مؤرخو القرن التاسع عشر هي أشدها إمعاناً في القدم وتغلغلاً في الماضي . ولقد كتب العبرانيون تاريخهم وملاًوه بحليل الحوادث ورددوا فكرة العناية الإلهية المسيطرة على الدنيا المتصرفه في مصائر الدول ، تلك الفكرة التي تركت أعمق أثر في الكثيرين من مؤرخي أوروبا . ونبع من الغزب مؤرخون كبار أظهروا كفاية نادرة في جمع الحوادث واستثبات النصوص ، ودل أحدهم على عبقرية فائقة في نظراته إلى الشؤون الاجتماعية . ولكن المؤرخين المتقدمين في جملتهم على براعتهم وفضلهم كانوا يندون

عن الصواب ويخالفون شرعة الانصاف عند ما يحاولون أن يصفوا
عصرًا غير عصرهم، وأمة غير أمتهم • فؤرخو اليونان كانت تتم
كتاباتهم على إحتقار غريب للغير وسوء فهم لأحواله ولم يبرأ بعض
مؤرخيهم من وصمة تلفيق الاكاذيب وتنميق الاساطير اكبارًا
لشأن أمتهم واستصغار الامر غيرها • وكانوا لا يعيشون إلا في حاضرهم
بل لم يفهموا من حاضرهم إلا ما كان تحت أعينهم وفي متناول
حواسهم • وكانوا إذا حكموا على الماضي قاسوه على الحاضر • وإذا
نظروا الى أمة غير أمتهم نظروا اليها في ضوء معتقداتهم الخاصة
وعايروها بما يبرهن الاثنية وهكذا لم يملك اليونانيون ، على سمو
ملكاتهم الفنية ، التصور الانتقادي للتاريخ ، وكان العبرانيون
يعتقدون أنهم شعب الله المختار ، ولم يكتب العرب عن غيرهم من
الامم ما يدل على تحرى الحقيقة وتوخى الانصاف ولهم في ذلك
ضروب من التخليط تصاح للفكاهة في ساعات الفراغ

بل مالنا نبعد الخطو ونرجع الى التاريخ القديم وأمامنا القرن
الثامن عشر. فقد كان ينقص مؤرخيه العظماء الخيال العاطف الذي
يمكن للمؤرخ من النفوذ الى أرواح العصور السالفة ومشاركة أهلها
في احساساتهم : وكان مؤرخوه يأخذون فكرة أن الانسان في كل
زمان ومكان هو الانسان بعينه قضية مسلمة لا يأتيها الباطل
أما القرن التاسع عشر فقد برىء من أكثر هذه الغيوب

ونضجت فيه الملكة التاريخية أتم نضوج وامتاز من بين سائر القرون
بلطافة المدخل الى باحات النفوس وحي السرائر واستبطان دخائل
الروح واستيحاء طيوف الماضى واحياء شخصياته الكبيرة . وقد
تآزر حاملان بينهما شابكة قربى على اسياغ هذه الروح على القرن
التاسع عشر . العامل الاول هو الثورة الفرنسية ، والعامل الثانى هو
نهضة الفكر الالمانى

غيرت الثورة الفرنسية الافكار وقلبت النظم وطوت الخلف
بين الامم وقربت ما بين قلوبها المتباعدة ونفوسها المتناكرة .
فاتصلت الافكار وامتزجت الثقافات وانداحت دوائر البحث
وأقبل الناس تمردهم العاطفة المشبوبة والهمة الناشطة يبحثون
من جديد فى العلم والدين والادب والتاريخ والفلسفة وغيرها
من المعارف البشرية ، وكما استطاعت الثورة فى الميدان السياسى
أن تخلع نير العبودية وتهدم السلطات الفاشمة وتسترد الحرية
المفصولة والحق المهضوم ، فكذلك فى الميدان الفكرى مهدت
المسيل الى التخلص من ربة التقاليد واهدرت حرمة تلك
القداسة الوهمية المضروبة حول بعض المباحث الفلسفية وأزاحت
عن الصدور كابوس التعصب

وكانت يقظة الاهتمام التاريخى ثمرة من ثمرات الاهتمام الرومانتى
بالحياة ، لان الروح الرومانتية التى استحوذت على النفوس فى طليعة

ذلك القرن كانت مولعة بالفرائب موكلة بالاسرار، فلاغروا ن رأّت في كل عصر من عصور التاريخ ما يثير طلعها ويطلق خيالها. فالعصور الوسطى تستهويها لما حفلت به من غرائب مدهشة واقاصيص عجيبة ولما فيها من كرامات القديسين ومعجزاتهم الخارقة والقلاع المهجورة والقصور المسحورة والفرسان الامجاد وابطال الصليبيين والدولة الرومانية المقدسة وبطلها شارلمان حامى حى النصرانية الذى نسيحت حوله طائفة من الخرافات لم ترجمها معاول النقد الحديث ، والشرق يجلب لبها لانه مشرق الحضارة ومهبط الاديان الكبرى ومسرح الانبياء

لذلك اتسع نطاق الابحاث التاريخية وكثر ايفاد البعث للتنقيب عن الآثار والالمام باحوال الامم الغابرة والحاضرة، وترجمت كتب ديانات الهند الى اللغات الأوربية وجعل الشعراء يقلدون الحلولية الهندية والصوفية الفارسية ، وعظم شأن الماضى فى نفوس الباحثين وأيقنوا أن الحاضر الراهن هو صفحة واحدة من صفحات كتاب الانسانية الضخم لا يعبر عنها التعبير الوافى ولا يعطى عنها فكرة صحيحة، وعرفوا أنه لا يوجد شىء غير جدير بعنايتهم مادام يصف عاطفة انسانية أو يثبت حادثة تاريخية فجملت الملاحم وحفظت أغاني القرويين واساطير الشعوب وقصص الجان والردة وشرع علماء اللغات يدرسونها فى نور التحقيق التاريخى، وتغير نظر

المفكرين للتاريخ فصاروا لا ينظرون فيه على أنه مجموعة من الامثال صالحة لتحضير الخطب واستخراج المواعظ والعبر وجمع الشواهد للقدوة الحسنة أو للمباهاة بمجد الاجداد وغرر المفاهيم بل من حيث هو تطور عميق شامل

وكان هناك شعب خامل طالما رماه جيرانه الاذكياء بكمثافة الشعور وجود الظل . وهو الشعب الالماني . وكأنا دقت الساعة اذ ذاك وأن الاوان ليتولى هذا الشعب الزعامة الروحية لتلك الحركة الفكرية الباهرة وقد أحدثت الثورة في فرنسا انقلابا سياسيا اجتماعيا وأحدثت في انجلترا انقلابا في الادب والشعر . أما في المانيا فانهما أحدثت نزعة فلسفية وذلك لانه من سميات الثورة الفرنسية انها وجهت العقل الانساني الى ناحية التجريد ولم يكن هناك شعب أكثر قابلية لمجاعة هذه النزعة الفكرية من الالمان فان لغتهم معروفة بأنها لغة تجريدية . وبفضل هذا الاستعداد وصلوا الى الافكار الكبيرة وشيدوا الابنية الفلسفية العجيبة . وكانوا يشعرون أن وراء بلاغات العصر المدرسي وزخارفه وتحاسينه ، غورا أعمق . وأن خلف المذاهب المتباينة والاعتقادات الدينية المتعددة ، العاطفة الدينية . وان خلف القواعد والتفاعيل والاوزان ، الجمال الشعري . وأن وراء ظواهر هذا الوجود ، سره الباطن الخفي .

ولقد كانت الحركة الفكرية في القرن الثامن عشر من عمل

فرنسا وانكلترة . فقد رأت فرنسا الحركة الفكرية في عهد
لويز الرابع عشر . وخلفت فيها إيطاليا . ثم نازعت انكلترة فرنسا
تلك السيادة الفكرية بظهور نيوتن . ولم يقطع التصادم الحربى
بينهما تيار الاتصال الفكرى . وقد عد « بولكل » المؤرخ امتزاج العقل
الفرنسى بالعقل الانكليزى أهم حوادث القرن الثامن عشر .
أما ألمانيا التى أخذت تبرا من حرب الثلاثين سنة فكانت فى
سنة ١٧٥٠ فى المؤخرة وظلت كذلك حتى سنة ١٧٦٠ فكانت
تلعب دوراً ثانوياً وتتغذى على موائد فرنسا وانكلترة الحافلة ، حتى
ظهر « لسنج » شيخ نقاد الألمان ورأس أدبائهم ومن حين ظهوره أخذ
الأدب الألمانى ينهض من كبوته ويتبوأ مكانه وشرع مفكرو
الألمان يكملون ما بدأه « روسو » فى فرنسا وهيوم وبرك فى انكلترة
وتعلموا من روسو فكرة الحرية وتقديرها وأخذوا عن هيوم
فكرة تحديد المعرفة البشرية واستمدوا من غيبون ومنتسكيو
آراءهما فى التاريخ ودراسته كما استفادوا من رسالة يرك
عن الجميل والجميل

وتجمعت التيارات الفكرية كلها فى ألمانيا وأعان الشعر
الفلسفة ونشأت نظريات فى التاريخ وفلسفته وكانت الفكرة الغالبة
على هذه الحركة هى فكرة التطور التاريخى التى بدأها لسنج وأتباعها
هردر وجيته وبلغت نهايتها فى فلسفة هيجل . وكانت هذه التصورات

٢٠ الجديدة للحياة والتاريخ تتطلب افقا فكريا أوسع من الافق الذى أوجدته فردية روسو وفلسفة هيوم . ففى هذا الموقف نبغ « كانت » الذى احدث ثورة فى الفلسفة وجمعها من أطرافها ووضع أساس التفكير الفلسفى للمذاهب الجديدة

وقد قال النقاد الكبير « تين » فى كتابه القيم عن تاريخ الادب « الانكايلى » « أخرجت المانيا بين سنة ١٧٨٠ وسنة ١٨٣٠ كل أفكار عصرنا التاريخى . وواجبنا لمدة نصف قرن — بل ربما لمدة قرن برمته — هو أن نعيد التفكير فيها » وهكذا ظهرت فى ألمانيا العبقريّة الفلسفية فكانت تاج نهضتها كما ظهرت فى ايطاليا فى عصر أحياء العلوم العبقريّة الفنيه

ومصدر قوة الالمان هو القدرة على اكتشاف الأفكار العامة ولم يبلغ أحد مرتبة الالمان فى ذلك . وهى سر كل ما بلغوا وكانت هى الماسكة المسيطرة على عقاقهم . وكانوا بهذا الماسكة يجمعون تحت فكرة واحدة الاجزاء المنتثرة لشيء ما . ويرون وراء كل فصيلة من الفصائل الرابطة العامة التى تربطها الى بعضها وتلائم بين المتناقضات ويستحضرون الوحدة للأشياء المختلفة فى الظاهر . وهذه هى الموهبة الفلسفية التى طبعت كل مؤلفاتهم بطابعها . وبها بثوا الحياة فى البحوث الجافة وافاضوا الضوء فى مظلم المشكلات وادركوا أرواح العصور واستخلصوا قوانين التاريخ من اخلاط الفوضى وشوائب الغموض

٢٢-محاورات

وابتدعوا علوم اللغة والاساطير وأساليب النقد والتاريخ . وكانت كل مذاهب المانيا الفلسفية تطبيقات مختلفة لنظرية واحدة وهي نظرية الوحدة المطلقة لهذا الكون فكل مظهر من مظاهر هذا الكون جزء من كل . ولاجل أن نفهمه علينا أن نعيد بناء هذه المجموع في الفكر . وهذا المجموع يتصل بمجموع آخر . وهذا بثالث وهكذا الى الالانهاية حتى لا يبقى شيء منفصلا في هذا العالم وحتى تمثل الدنيا متكونة من مظاهر لا يأخذها الحصر . ولكن هذه المظاهر تقنى وتتساقط ، وهناك قوة كامنة في صميم الكون لا يمكن تفسيرها تجدد هذه المظاهر البالية المتكسرة وتردها الى الحياة ، وهذه الفكرة تطبيقات لا تعد ولا تحصى " " ولعل أكبر ممثلي هذه الحركة هو الفيلسوف الكبير هيجل الذى يعتبره الكثيرون من نقاد الفلسفة المكمل الحقيقى لفلسفة « كانت » وهيجل رجل شديد الغموض فى فلسفته بعيد الشقة على من رآه لا يفتقر لقارئه الجمود الفكرى ولا الكبرياء الاجوف . ولا بد أن تأخذ له عدته قبل أن تلم بشيء من أفكاره ولا يحمل برجل حسن الثقيف أن يجهل الحركة الفلسفية من « كانت » الى هيجل . الجهل المطلق لأن من جهل ذلك فقد جهل تاريخ الحركة الفكرية العالمية . وسألم بها المامة يسيرة تناسب الايجاز الشديد الذى أتوخاه يبدأ « كانت » فلسفته بهدم فكرة أن العقل البشرى لا يحوى

غير الصور التي تنطبع على لوحته من الخارج بطريق الحواس .
وذلك لأنى عندما أشاهد جثة رجل قد وافاه الموت من جراء
جرح رغب أسائل نفسى فى التو والاحظة «من قتل هذا الرجل ؟»
فوظيفة الحواس هنا أنها أرتنى الجنة ولكن سؤالى لنفسى يتضمن
البحث عن السبب . وليس هذا نتيجة التفكير والروية وإنما هو
فيض العقل وبداهة الفكر الذى يربط الفكرة بالاحساس .
فالامر اذن على تقيض ما كان يراه القرن الثامن عشر ، والعقل
البشرى لاتصوغه التجارب الخارجية ولا توجده الحوادث وإنما
نحن ندرك الاشياء الخارجية لانها تأخذ شكل عقلنا وتنطبع بطابعه
وكما أن كوبر نيكس عجز فى بادىء الامر عن تفسير نظام الكواكب
لانه فرض أن الشمس والكواكب كلها تدور حول الارض ولم
يهتد الى التفسير الصحيح الا عندما أدرك أن الامر على خلاف
ماقدر وأن الارض والنجوم والكواكب تدور حول الشمس
فكذلك « كانت » بعد أن بدأ يبحث عن تفسير العقل البشرى فى
العالم الخارجى عاد فغير طريقته وثبت له أنه يجب الابتداء بفهم
العقل فى ذاته وفحص داخلية . ولما كان العالم الخارجى لا يبدو لنا الا
فى الصورة التى تصوره بها قوانين العقل البشرى لذلك لا يمكننا أن نتعرف
القيمة الحقيقية للاشياء الخارجية الا بعد الوقوف على ماهية قوانين
العقل البشرى وانى مضطر الى ان أتصور الاشياء فى الزمان

والمكان . لا لأن فكرة الزمان والمكان نفذت الى ذهنى من
الخارج بل لأنها هى نفسها قانون عقلى ولا يمكننى تقدير هذه
الفكرة الا بدراسة القوانين العقلية وبهذا الاسلوب فى
التفكير قضى « كانت » على فكرة ان العقل أشبه بالوحدة ينطبع عليها
المؤثرات واسترد العقل البشرى حقوقه المضىعة ومواهبه المنكورة
ولكن الجو الفكرى لم يابث ان غام وساور النفوس القلق وخيف
ان يعود الشك القديم الذى لا قى كبار الفلاسفة القدماء عناء جما
فى رد عرامه واتقاذ النفوس من وساوسه ويستفحل أمره وتستعصى
علته وذلك لان « كانت » ترك الروح البشرية كالمحبوسة ترقب العالم
الخارجى من وراء قضبان الحواس واثبت أن الدنيا التى نراها هى
الدنيا كما تصورها حواسنا . وهنا ظهر « نخته الفيلسوف » وقال ان
الدنيا من خلق عقلنا . وأدهش مرة سامعى محاضراته بقوله فى نهاية
احدى محاضراته « غدا ياسادة سننتقل الى خلق الله »

فى هذا الموقف العصيب وافى العالم « هجل » وفى يده عصاه
السحرية التى جاء بها بالمعجزات وهى أسلوبه فى المنطق المسمي
بالمذهب الجدلى وحاول « هجل » أن يمحو التناقض بين « الانا » و
« غير الانا » فقال ان الاثنين مظهر للمطلق وحاول الاهتداء الى
المطلق بدراسة الروح البشرية . والمطلق هو باعث الحياة فى الكون
وليس هو فكرة مجردة وانما هو مصدر حقيقة النفس والانفس .

وهو في حالة صيرورة دائمة ولا يمكن تفسير الكون والطبيعة والتاريخ الا بالرجوع الى المطلق الذى يتراءى خلالها . وكانت فاسفة التاريخ من الاركان الاساسية في فلسفة «هجل» لانها قائمة على المطلق الذى من شأنه أن يصير شاعرا بنفسه في التاريخ ومن ثم أصبح للتاريخ أهمية كبرى لانه يفسر ترقى المطلق وتكشفه حيناً بعد حين . وقدر حب عالم الثقافة بهذه الفلسفة كل الترحيب واعتدها حلاً مقبولا لمسائل طالت معالجتها وأثرت تأثيرا بالغا في الثقافة عامة وفي دراسة التاريخ خاصة . ولا يزال أثرها باديا الى اليوم حتى في بعض الكتاب الذين يرفضون فلسفة «هجل» ويعمدونها دعوى عريضة وجرأة ممقونة

وقد ترك « كانت » التناقض بين النفس وبين الشيء في نفسه ، وحاول شاخ ونخت التوفيق بين الاثنين بإلغاء أحدا الجانبين . أما هجل فحاول أن يوفق بين الاثنين ويلائم بين عالم العقل وعالم المادة وبين الروح والطبيعة وعالم الفكر وعالم الواقع لأنه رأى أن كل هذه المتناقضات تظمها وحدة الفكر ولأن المطلق هو الشعور المدرك الذى يردُّ اليه كل شيء ويحذفه ما يبرر وجوده ويفسر معناه ويعتقد هجل أن هذا المطلق يمكن إدراكه بالعقل ومن ثم هو خصم لدود المذهب اللاأدرية من ناحية وللمذاهب الصوفية من ناحية أخرى . والمطلق في زعمه روح حية دافقة تنبعث منها

كل المظاهر الزائلة وتحقق كل الصور . وأدراكه هو غرض
الثقافة والفلسفة والدين والعلم
ويوجد المطلق أولاً في صورة فكرة تقية ثم يهبط عالم الطبيعة
غير الشاعرة ثم يسمو الى درجة الشعور في الانسان ويتحقق أكثر
ثأكثر في النظم الاجتماعية ثم في الفن والدين والعلم ثم يعود الى
نفسه ثريا حافلا

وتقتضى وحدة الفكر أن نتصوره على أنه وحدة المتناقضات
ففي الحياة الدارجة يدرك فهمنا جزءاً من الكل . وهذا الجزء
بضرورة الحال ليس كاملاً في ذاته بل يدل على شيء آخر . ولسنا
نصل الى الحق إلا بتأمل الجانبين . وفي ترقى الفكر تنتقل كل
فكرة الى تقيضها ولا نصل الى الحق إلا عندما نعتبر الجزئين
مكملين لبعضهما البعض . ويسمى «هيجل» الانتقال من أبسط
الأفكار الى الأفكار المركبة بطريق النفي والتناقض منطق الفكر
Dialectic of thought وهذا المنطق قائم على الاقرار بالتوافق
بين المتناقضات . فكل تأكيد دليل نفي وكل نفي يدل على تأكيد
وهذا القانون يسير من حالة إيجابية Thesis إلى حالة سلبية
Antithesis ومنها الى حالة مترتبة من الاثنين أى حالة سلبية
إيجابية Synthesis وهكذا تترقى للمتناقضات الى حالات تركيبية
سمى ، وقانون المتناقضات في المنطق الذى يقول بعدم اجتماع

النقيضين يعنو لمنطق أسمى هو منطق الحياة الذى يقول بأن الحقيقة مكونة من المتناقضات وأن الكل هو الحقيقى وكل ما خلاه . طل وترائف . والحقيقة الجزئية هي محض تجريد ولا قيمة لها إلا عند ما تتصل بالكل . وكل ما فى الوجود خاضع لهذه الحركة الثلاثية من أبسط الكائنات الى أسماها . فالفكرة تترقى من التجريد الذاتى البسيط الى الوحدة والدنيا تسير هذا السير . والطبيعة والتاريخ والفلسفة تمثله فالبذرة داخلها شجرة البلوط ولكن شجرة البلوط عند نضجها تنفى البذرة وتحققها معا . والطفل طيه الرجل ولكن الرجل ينفي الطفل ويؤكدده معا . والتاريخ يمثل ذلك فى مجال أوسع وتنتقل الحضارة فى تطورها من دور الى دور بتأثير تفاعل الميول وتباين النزعات ، فمصور السلطة تتلوها عصور الفوضى ثم ينشأ من الاثنين عصر حرية أسمى ، فالكون اذن فى نظر « هجل » تطور شامل يتراءى المطلق خلاله

هذه لمحة من تلك الفلسفة التى غمرت العالم فى أوائل القرن التاسع عشر وأثرت ايما تأثير فى نفوس كبار المفكرين وملأت الجوف الفكرى بالافكار والتأملات

بين هذه التيارات الفكرية القوية والحركات الناشطة ظهر كاتبان مؤرخان بينهما وجوه كثيرة من التشابه والاختلاف وأخص صفة يشتركان فيها هي أنهما يعبران الى حد كبير عن روح عصرهما

ويمثلان نزعة القرن التاسع عشر التاريخية في أوضح صورها، أحد هذين الكاتين «توماس كارليل» نشأ في هضاب اسكتلندة وفي أشعار جيتي والفكر الألماني. والآخر هو ارنست رينان الذي نشأ في براري بريطانيا وتشبع بالفكر الألماني. وهذان المؤرخان الكبيران كلاهما مؤثر للباطال والعقريين ساخر بالجاهير والجماعات يرى أن خلاص الدنيا هو أن يسيطر على في أمورها فئة من العلماء الاشراف وكلاهما رزق الى حد كبير تلك الحاسة التاريخية النادرة وهي القدرة على استقرار نفسية أهل العصور السالفة والنفوذ الى مسالك خواطنهم ومضطرب أهوائهم وبفضل هذه القدرة صار الاول مؤرخ أكبر ثورة عرفتها القرون الحديثة وهي الثورة الفرنسية وصار الثاني مؤرخ أكبر انقلاب في العصور القديمة وهو ظهور الديانة المسيحية. وكلاهما أضاف الى طبيعته السرية ومواهبه العالية التوسع في الاطلاع والصبر على الاستقصاء فكان الاول أول من فتح أبواب بلاد الانجليز للأدب الألماني وأول من أسمع قومه كلمات «جيتي ونخته» ونوفاليس ورخترو وغيرهم من عظماء الألمان. أما الثاني فقد طاف به اطلاعه الواسع وخياله الجوال على أطلال بابل واشور وآثار العبرانيين حتى استخلص تاريخهم من نواحي الغموض وأرسل عليه أشعة لا تزول. وكان كلاهما من الحين الى الحين يعود من رحلته في الماضي ليتناول مشكلات عصره وازماته المستحكمة فيبدل فيها بالرأى الموفق والحكم النزيه.

وظهر كلاهما في أوانه فكان نتيجة منطقية للمقدمات التي
ألمعنا إليها إذ كان البحث الألمانى قد مهد السبيل وجمع المواد وأوجد
الصيغ والمقاييس فننفخ كل منهما الحياة في تلك المواد المكسدة
وصبها في قالب الفنى ومنحها حرارة القلب وراق عليها ضوء العبقرية
وكان كلاهما ينظر الى التاريخ تلك النظرة الكلية فيراه دراما كبرى
تمثاها الأمام على مسرح الليل والنهار الذى تضيئه الشمس والامطار
والنجوم الزاهرة . وكان يغلب على كليهما الاحساس الدينى والشعور
الادبى المتجه الى خوالج الضمير وخفايا النفس وكان هذا فى نفس
«كارليل» من تأثير الوراثة «البيوريتانية». أما «رينان» فقد ورث
عمق العاطفة الدينية وقوة الشعور الاخلاقى من أجداده السلتيين .
وقد نشأ فى جو مفعم بالحزن مخوف بالجلال ينمى فى الانسان
المشاعر الغامضة والاحساسات الدينية لأن هناك فى تلك البرارى
الموحشة من مقاطعة بريطانية حيث تهدر أمواج البحر المزبدة
الطاغية، وحيث الفضاء المتجهم والسحب المتراكبة تستولى على
الانسان الكآبة ويفارقه المرح ومن ينشأ فى تلك الأرض العارية
المحاروبين كسور الصخور يتضاءل فى نفسه الشعور بالعالم الخارجى
رويداً رويداً ويستجمع كل قوته ويوجه كل فكره الى مسألة
المصير والمآل وما وراء الحياة الحاضرة . ولقد تفتحت فى نفس «رينان»
أزاهير من التفكير غامضة مثل المحيط الهادر الساخر الذى يضرب

شواطيء بريطانيا مهجورة مثل صخورها الصم الاوابد ونسم
أريج تلك الازاهير في صفحات كتبه فلطف من شكوكيته
وجعلنا نستعذب كلماته ونعطف على افكاره عندما يتخونها المنطق
بالتقوى والفكر السديد

هذه بعض وجوه الشبه بين هذين الرجلين الكبيرين . وهناك
مفروق جوهرية بينهما . قال أمرسن عن كارليل «علمه حقيقة يثقل
بالشكر . ولكن لقنه نظرية يسخر منك بل ربما كال لك الشتم »
وهذا رأى كاتب كبير وناقد أديب ربطته بكارليل أواصر صدقة
ظلت متينة حتى توفاهما الله . وقد أصاب فيه الحقيقة وأجل وصف
تلك الصفة العقلية التي امتاز بها «كارليل» وهي مصدر قوته وضعفه
وتلك الصفة هي سدة شغفه بالحقائق الواقعة وكرهيته للنظريات
أما «رينان» فلعله كان أشد كلفا بالنظريات من «كارليل» كان كارليل
يجعل النظرية حقيقة ملموسة فيستخرج من الفكرة عاطفة ومن
المبدأ شخصا ومن الفلسفة تاريخا بل كان يطلب الى الشعراء أن
يقتصروا على التنفي بالحوادث التاريخية وبلغ به الاغراق في ذلك
أن صرح مرة بأن أهمية شكسبير في نظره هي لانه كتب رواياته
التاريخية وأنه يكبره لانه يرى فيه أ كفاً شاعر في القدرة على
نظم تاريخ الجزر البريطانية شعرا أما «رينان» فهو على تقيض ذلك
اذ كان ولو عا بأن يستنبط من الواقع اللاموس نظرية وأن يخرج

من التاريخ بفكرة عامة . ومن ثم ميله الى التعميمات العريضة والنظريات الشاملة . وكان عندما يزن قيمة شعب من الشعوب يجعل الفكرة التي أوجدها هذا الشعب ميزته ومقياسه ، وقد تركت هذه النصفة العقلية أثرها في أسلوب «رينان» فعبثا تبحث فيه عن حرارة «كارليل» وقوته وبراعة تصويره الفائقة المنقطعة النظير في الادب الحديث وعن تلك الصور المعجبية التي لا ترى لها مثيلا الا في شكسبير ، وأسلوب «رينان» رقيق ناعم الى حد الهيف واستعاراته ليست في غاية الاحكام والجلال ، وقد أصاب الناقد القدير جيل لمر عندما قال في مقاله الممتع الفكه عن «رينان» هو «فنان ولكن أسلوبه أقل الاساليب تصويرا» ، اما صوره التاريخية فان الكاتب لا يحاول ان يبارى بها ريشة الرسام وحسبه أن يصف حياتها الداخلية ونوازعها الخفية ، وصيغ الاعتدال وتحاشى المبالغة والتأكيد كثيرة في كتاباته مما يدل على بعده عن التعصب وشدة اعتقاده بان الحق شيء نسبي ولا تلمح في كتاباته أثر التهويل ولا تسمع صدى تلك الصرخات العالية التي جعلت جماعة من النقاد يشبهون «كارليل» بالنبي ارميا صاحب المراثي المشهورة

ولعل الفرق بين أسلوب «كارليل» وأسلوب «رينان» كالفرق بين الجلال والجمال ، فان أسلوب كارليل قوى جليل ينحدر انحدار الأتني في صخبه وأسلوب «رينان» جميل طلي ينساب في لين ورفق

كالعيون الجارية فهو أسلوب ملائم لمسات الوحي الداخلى مغبر
عن لغة الضمير العاكف على نفسه يروى لنا احلامه عن الحياة
والوجود ومشاعره الغامضة الخفية إزاء هذا الكون الغريب
ولرinnan روايات فلسفية ألبس فيها الافكار ثوب الاشخاص.
ولكن هذه الروايات نفسها تدل على سعة الفكر وازدحام الخواطر
وتتم في نفس الوقت على ضعف القوة التصويرية والبراعة.
الدراماتيكية لان هؤلاء الاشخاص ليسوا اشخاصاً من لحم ودم
وانما هم اشخاص خياليون يجرى في عروقهم أثر غير محسوس ويامح
القارئ أثر ذلك في هذه المحاورات فان رinnan لم يرسم هؤلاء
الاشخاص المتحاورين ولم يصف ملابسهم ولهجتهم في الحديث
ومكان حوارهم

وقد تركت الروح العلمية التي سادت في القرن التاسع عشر
أثراً عميقاً في نفس رinnan على حين كان كارليل يقاومها ويسخر
برجالها وكراهة كارليل لدارون والدارونية معروفة ، وقد أثرت
الروح العلمية على تصور رinnan للتاريخ ووجهت فيه النظرة الكونية.
العالمية للأشياء على النظرة النفسية الفنية وأفسحت السبيل لتلك
السخرية الباسمة التي غلبت على رinnan وصارت طبعاً مألوفاً لازماله
حتى عندما يتناول الكتابة في أخطر المباحث وأقدس الأشياء مما
كان يثير عليه سخط ذوى القلوب الجادة الكريمة والنفوس.

الصالحة الورعة اذ كان يؤلمهم ويخرج احساساتهم الشريفة أن يتناول «رينان» هذه المسائل التي كلفت الانسانية غزير الدموع وزكي الدماء وجشمتها الجبهود المضي وجرعتها مضض التضحية ومراة الحرمان بسخرية الهازء وابتسامة المتشكك . وان لكل انسان نصيبه من النظرة الكونية العلمية وقسطه من النظرة النفسية الفنية وان كان يتفاوت النصيب ويختلف القسط حسب المزاج الشخصى ، وفى ملابسات الحياة حوادث شخصية تجمعاننا فى بعض الاحيان نحصر تفكيرنا كله فى شخص بعينه وذلك عند ما تستولى عاينا عاطفة الهيام بمحبوب أو الشوق الى صديق أو الأسف والتوجع لفقد عزيز فنوجه أفكارنا كلها الى صوبه ونرى فى عالمه الصغير ما لا نراه فى العالم الكبير بل يصير اهتمامنا بذلك الشخص أشد من اهتمامنا بظواهر الطبيعة وعجائب الكون . وقد أجاد الاستاذ العقاد وصف هذه الحالة النفسية فى قصيدة له غزلية رائعة بقوله

وإن رياض الأرض ليست تسرنى

بشيء ولمح منك يفعم خاطري

وأحسن المتنبي وصف هذه الحالة فى قوله يرثى جدته

وما انسدت الدنيا على لصيةها

ولكن طرفاً لا أراك به أعمى

وألهمها الشريف الرضى؛ في قوله يترنى صديقه أبا اسحق الصبائي :-
ضاقَت على الأرض بمدك كلها
وتركت أضيقها على بلادى

فهذه هي النظرة النفسية في أقصى درجاتها . وتغلب علينا
النظرة الكونية في أبسط مظاهرها عند ما نبحر في سفينة ثم ندبر
الطرف حولنا فنرى السماء في زرقتها والبحر في امتداده وعظمته .
والشمس في جلالها وفي الليل تفتت النجوم التي لا نستطيع عدّها
وتزين السماء فنحس بضؤولة الانسان وتفاهة مساعيه الى جانب
عظم الكون وأبديته والنظرة الفنية تغلب على المؤرخ الذي ينفق
عمره ويوقف جهده للبحث عن الحقائق البشرية ويعد ثورات البشر
أكبر الحوادث ويعتبر انقلابات النظم وسقوط الدول وقيام
الحضارات هي كل ما في الوجود وتغلب كذلك على المفكر
الاخلاقى الذى لا يفتأ يصوب الطرف ويصعده في آفاق
النفس الانسانية يستقرى حوافزها المتسربة وأوجالها
الخفية أو الشاعر الذى يفيض شعوره على الأشياء . وتغلب النظرة
الكونية على العالم الجيولوجى الذى ينظر في تاريخ الانسانية في
مدى الملايين من السنين والعالم الفلكى الذى يحيل طرفه بين
الكواكب التى لا تعد . وقد كان «رينان» يردد بين النظرتين
وتشوالى على نفسه الخاليتين ان وهذا هو السر في سخريته الباسمة لان

السخرية متوقفة على طريقة النظر الى الاشياء . فأنت اذا نظرت الى
النمال من منظار مكبر لم تمالك عن الابتسام . كذلك اذا نظرت
الى الحياة البشرية من بعيد تضاءلت في ناظرك الجلود البشرية وهانت .
عليك الآمال العزيزة وأشرفت على البشر اشراف جلف الرحالة
على سكان « ليليت » ووجدت الحياة فرصة سانحة للتسلى
والسخرية ومن هنا ابتسامة السخرية التي لم تبرح ثغريتان . وهذه
النظرة الكونية تطفىء الحماسة وتغري بالاعتدال لان التأمل
يرى تنازع الارادات القوية والارادات الضعيفة وضلالات العقول .
ومصارع الشهوات ويرى كل جيل من أجيال الانسانية المتلاحقة
يعمل لغاية غير التي ينشدها ويحقق غرضا ليس له به سابق علم .
ومن هنا جاء التسامح الريناني والاعتدال الفلسفي وعدم اطمئنان
رينان لاهل الشغب والتشدد والصلابة وهذا ما حداه على أن يسخر
من القديس بولس تلك السخرية الرقيقة المهدبة التي لا أملك أن
أقاوم الاغراء على تقابلها هنا وهو قوله في كتاب « ضد المسيح »
« قضى القدر الغيور أننا في مسائل كثيرة من المسائل التي تثير
أشد اهتمامنا لانستطيع أن نخرج من الظل المظلم حيث نقيم الخرافة
ونكرر هنا مرة أخرى أن مسألة موت الرسولين بطرس وبولس
لا يفصل فيها سوى الفروض . سيما موت بولس فانه ملفوف في
الغموض . وبعض العبارات الواردة في سفر الرؤيا المكتوب

في آخر سنة ٦٨ أو أوائل سنة ٦٩ ميلادية تجعلنا نميل الى التفكير في أن مؤلف هذا الكتاب كان يعتقد أن بولس كان حيا عند كتابة كتابه ومن المستحيل أن تكون خاتمة الرسول العظيم مبهولة كل الجهل وقد يكون طاح به المرض أو أهلكه الفرق أو قضى نحبه في حادثة أخرى أثناء الرحلة الغريبة المعزوة اليه في بعض النصوص ، ولما لم يكن حوله أحد من تلامذته الناهيين لذلك . ستظل تفاصيل موته مبهولة وان كانت قد أتمتها الخرافة ، وفي الحق أن في فكرة الموت الغامض يمضي بالرسول الصخاب ما تستروح به نفوسنا . وبودنا أن نتصور بولس قد غابه الشك وأدركه الفرق مهجورا قد خانه رفقاؤه واحتواه اليأس ، ويسرنا أن نعلم أن الحيرة قد عادت اليه مرة ثانية ، وأن ارتيانا الرقيق ليشار لنفسه بعض الثأر لو أن أشد الرجال تشددا في عقيدته مات مسلوب الأمل على شاطئ أحد الانهار أو في أحد طرق أسبانيا وهو يقول لقد أخطأت »

ولرinnan مثل سائر كبار المؤرخين وعظماء الكتاب فلسفة حياة مستقرة خاف كتاباته يستشهدها في تناول مشكلات الحياة والكون والاجتماع . وفلسفة Rinnan مستمدة من هجل بل هي فلسفة هجل ملطفة مصقولة منقولة من عالم الفلسفة والتجريد الى معالم الادب والفن وليكنها مقتبسة من هجل في المعنى الذي يقال

فيه أن الدور التي نبتنيها مقتبسة من الغابات والمخارج

وكان رينان يجمع الى فلسفته الهجلية شدة الايمان بالعلم .
ولكن فكرته عن العلم لم تخل من نقص فقد كان يلحق بالعلم
العلوم الطبيعية وعلوم اللغة والتاريخ وكأنما أراد القدر أن يسخر في
دوره من «رينان» الذي كان لا يؤمن بفكرة خشية أن تخدعه . فقد
آمن «رينان» بأن التاريخ علم وجارى في ذلك أهل عصره وغاب
عن علم «رينان» أن التاريخ ليس علما كسائر العلوم اذ ليس في
وسعنا أن نتنبأ فيه بنتائج الاشياء بطريقة غير قابلة للخطأ كما نتنبأ
في التجارب الكيميائية والعمليات الطبية ومقاييس الفلك ودورات
النجوم . والفرق الجوهرى بين العلم والتاريخ هو أن العلم يرى سمات
الاشياء وأشكال الموجودات . أما التاريخ فانه لا يعلق أهمية كبرى
على هذه السمات إلا إذا فسرها ، ونفذ الى باطنها . والتاريخ يعمل على
احياء الموتى وتصوير أفكارهم وأهوائهم وهذا يقوم على الانشاء والخلق
فالتاريخ من هذه الوجهة أشبه بقصيدة عامرة مادتها متعارفة
وقصتها مشهورة . أو هو ملحمة حوادثها مروية وأشخاصها معلومون
أما العلم الوضعى فليس هذا شأنه وإنما قصاره أن يبحث عن الروابط
والصلات بين الاشياء ، وهو لا يحاول أن ينفذ الى ما وراء ذلك وحسبه أن
يتناول الاشياء بالمقياس والميزان ، ويدير عليها التجربة والملاحظة
ويطبق قانون السببية ، وعندما يهتدى إلى طريقة تنسيقها فصائل

وطبقات ينفض يده وينتهى عمله ، فهو لا يبحث عن أصل الحركة ولا عما يحدث داخل الذرات على حين أن التاريخ يحاول الوصول الى دخيلة الذرات الانسانية ، ولا يكتفى بتقرير فتوحات الاسكندر وأفانجيل « أتلا » ومواقف صلاح الدين ، وإنما يحاول أن يقرأ فكرهم ويتغلغل الى صميم شعورهم . وعلى المؤرخ أن ينقل نفسه باخيلال العاطف والبديهة الموقفة مكان هؤلاء الأبطال ويقف من الحياة موقفهم لينظر الاشياء بعيونهم ويحس باحاسسهم وهذا جميل . في ذاته وبراعة فنية غير منكورة واسكن على شريطة ألا تموء علينا حقيقةها والا نتزع لها الصفة العلمية غصبا ونكره العلم على قبولها اكرها وقد أحسن المسيو « يولان » في قوله عن «رينان» في كتاب «أدب السخرية» ، «رينان الذي فهم سخرية الفضيلة لم يستوف التفكير في سخرية العلم وربما كانت العلة في ذلك أن فضيلة رينان أكبر من علمه »

وكان رينان يرى أن قانون العلم الاعلى هو السببية التي تنافر كل معجزة وتنكر كل شذوذ عن سنن الطبيعة . وقد أوسع هذا الاعتقاد شقة الخلاف بينه وبين رجال الدين وجعله يشتبك معهم في جملة مواقع . ولكن رينان مع هذا الإنكار ظل محتفظا بروح الدين من حيث هو الاحساس بوحدة الاشياء والايمان بالمثل الاعلى على أن الشك كان أقوى أمرا في نفسه من أن يترك له عقيدة سليمة

وفكرة غير مزعومة. ففكرة انزال المعجزات التي ردها في هذه
المحاورات وعدها من يقينياته الثوابت ووقف الى جانبها طويلا لم
تسلم من شكه فقد كتب في كتابه «أوراق منشورة» يقول (ان آلاف
الاعوام ليست شيئاً في لانهائية الزمن . ومانسميه زماناً . وتتطاولا
يتقاصر اذا قيس الى دهور ابعدمدى . والكيميائي عند ما يقوم
بتجربة ويحدد لها سنة كاملة فانه لا يلمس جهازه في غضونهما وكل ما يحدث
في انايقه يخضع لقوانين اللاتنبهى المطلقة ولكن هذا يتفق تمام الاتفاق
مع تدخل ارادة في مبدأ الامر وتدخل ارادة في نهاية التجربة . وخلال
هذه الفترات تتولد في الجهاز ملايين الميكروبات ولو أن هذه
الميكروبات رزقت العقل لساغ لها أن تقول بأن هذه الدنيا لا تسيطر
عليها أية ارادة . وسيصدق قولها بالنسبة لدائرة تجاربها ولكنها
ستخطيء من حيث النظر الى الكون في جملته الشاملة) وكتب في
موضع آخر من نفس الكتاب « إن مانسميه زماناً لانهايتار بما كان فترة
بين معجزتين . وهذا هو كل ما نستطيع قوله عن المحجب وراء الزائل
المحدود . فليكن مذهبنا لاننكر شيئاً ولا نؤمن شيئاً وأن نؤمن
في كل شيء »

وكان رينان يذهب الى أن الانسان يرى في أعماق نفسه صورة
المثل الاعلى مرسمة . وهذا التصور للمثل الاعلى المستقر في صميم
الانسان هو ما يسميه رينان « الله » ولكن هل الله هذا مجرد ادراك

تصوري في العقل البشري أم هو حقيقة أيضا ؟ رينان لا يقطع في ذلك برأى وتراه يتردد بازاء ذلك بين لا-ونعم . وهو يرى أن هنالك خالقا يدخل المثل الاعلى في الواقع . ولكننا لا نعرف عنه شيئا أكثر من أنه كائن . فهل يوجد شيء وراء الطبيعة ؟ نعم يوجد وما الطبيعة سوى مظهر . وما الانسان الصورة . وهنالك الابدى الذي له الدوام . كما يقول المسلمون . وهو الاب الذي خرج منه الجميع واليه يعودون والمثل الاعلى عند « رينان » هو « الفكرة » كما يتحدث عنها « هجل » فهي الروح المتطورة في هذا الكون . ومن ثم كان الدين الحقيقي هو معرفة الدنيا وفهم الانسانية وكانت الطبيعة والتاريخ أدل على المقدس من صيغ اللاهوت وطقوس الدين

ورينان لا يمل من ترديد فكرة أن في أحماق الكون احساسا غامضا ولكنه على ما به من غموض هو المحرك للدنيا وهو أشبه باله « موجود بالقوة » ولكنه سيوجد « بالفعل » وفكرة الواجب قائمة على أن ننفذ مشيئته . والعمل الذي تدأب من أجله الانسانية سيتم عاجلا أو آجلا فإن أمامه فسحة الابد . وسيتحقق المثل الاعلى في النهاية وينضج الشعور العام . والافراد زائلون وليس لهم نصيب من الخلود إلا بمقدار ما أدوا من خدمات للكمال فهل نحن مخدوعون ؟ نعم . ولكن هذا الخداع منطوق على معنى ؛ لان الطبيعة تستغلنا لغاية تريدها وتعمل على خداعنا لتحقيق تلك الغاية . والفضيلة ذاتها ضرب

من خداع الطبيعة. والشر هو الثورة على الطبيعة ورفض أوامرها. وإذا أبعدنا النظر وجدنا أن خداع الطبيعة ليس خداعاً مطلقاً لان. الدنيا متجهة الى الاحساس بنفسها أكثر فأكثر والانسان خالد في «الله» ومسألة الزمان والمكان تتلاشى في المطلق. وفي «الله» تحيا كل الارواح. وحاول رينان أن يهدي حيرته باليقين والحب كما في قوله «أيها الاب السماوى ! لست أدري ما الذى خبأته لنا . وهذا اليقين الذى شئت ألا تمحوه من قلوبنا هل هو عزاء ألهمت قلوبنا اياه. لكي نحتمل شقوة وجودنا ؟ وهل القنوط هو الحق ، وهل الحقيقة محزنة ؟ لقد شئت الا يكون جواب جلي على هذه الشكوك حتى لا يفقد الاعتقاد فى الخير جزاءه وحتى لا تقوم الفضيلة على التقدير والحساب فبوركت فى خفائك ودمت لحفظ الحرية التامة. لقلوبنا »

وإذا كان الله غير ظاهر فإنه سيظهر . سيظهر فى الطبيعة. وفى التاريخ والعلم سيحقق الله . وسيجعل الكون بالعلم على مقدار من الشعور أتم وأشمل حيث تبرز كل المشاعر. والعلماء هم اللذين يعينون على خالق هذا العصر . ورينان يرى قداسة العلماء ويحلم بسيادتهم المطلقة . وهذا منشأ رأيه عن الارستقراطية وحملته على الديمقراطية لان فيها القضاء على التفوق العلمى والفنى. وتصور رينان عصرًا يتسلح فيه العلماء بقوة العلم ودقيق مخترعاته ويخضعون

القطيع الانسانى لامرتهم ويزيقون من يخرج عليهم النكال ويصلونه
النار الحامية . وعلى الانسان ألا يترث في أن يضحى بنفسه اذا
علم ان في هذه التضحية خيراً دألم ونفعا للاجيال المقبلة .

وهذه الافكار وأمثالها هي فلسفة هجل في الاسلوب الرينانى على
أن رينان لم يقل هذه الافكار بلهجة الواثق لأن الشك كان عنده فريضة
ادبيه وحلية فنية ، وكان يناقض نفسه من الحين الى الحين ، ويتردد بين
نعم ولا ، ويوقف فيوض القلب باحكام العقل ، ويلطف الحماسة
بالسخرية ، ويرى أنه ربما لا يكون هنالك شئ بعد كل ذلك ،
وهذا هو السر في ان رينان كان يدخل الفكاهة في مواطن الجد ،
ويعمزج الفلسفة بالادب . وحرص رينان على ان يجتذب الجمهور
ويتراضاه فاستزاد من السخرية والفكاهة واستكثر من الالاعيب
اللفظية ليروع ويعجب ويفتن ويخلب ويرقص على كل حبل ويتغنى
بكل لحن . ورينان على تناقضه وشكه حافل بالافكار مزدحم
النفس بالاحساسات ولكنه لا يتخذ في تفكيره خطوة واضحة
ولا يلون أفكاره بلون حاد ، وانما ينفلت بين خفى الظلال ومبهم الالوان
وتأثر رينان بفلسفة هجل والتزامه هذا الموقف الفكرى
مالا به الى نزعة فكرية من النزعات التى اشتهرت في القرن التاسع
عشر «وهى الدلتانزم» وخطة انصار هذا المذهب هي رفض
الاستمسالك بالافكار وتجنب الاستعماق في فهم الاشياء وانما

مطلب صاحب هذا المذهب هو المتعة والتسلي ، فهو لا يعادي مذهبا من المذاهب ولا تضيق أخلاقه بخطة من الخطط ، بل هو يعطف على كل شيء من بعيد عطفًا افلاطونيًا لأنه يعتقد ان لكل شيء ما يبرر وجوده في هذا الكون الذي تجتمع فيه المتناقضات فهو يسلم بكل المعتقدات والمذاهب لا على انها حقائق بل لانها تدبر عن حالات للروح يستطيع ان يتذوقها ويستمتع بها وقد كان رينان يرى في نفس سخافات « نيرون » متعة للاستطلاع ومنفذا للفكره والتسلي . وليس هذا الموقف في وسع كل انسان لأنه يستلزم الشك المصفي والفن المذهب وهو نتيجة لازمة للحركة الرومانتية لان الوقوف على أفكار الامم في مختلف العصور وتأمل احلام الكون التي صاغتها أخيلة الشعوب مما يؤدي الى هذا الموقف ، وقد كانت نفس رينان مسرح هذه النزعة ولم تخل الروح الدينية المستقرة في اعماق رينان من أثرها في تكييف هذه النزعة اذ جعلت رينان يميل الى دراسة الاديان فر كم خياله ساجدا في مواقف جمّة واستنشق جملة مباحث وكرر توسلات مختلفة وصلوات متباينة وألم بافراح الاديان ومسراتها وشجونها واحزانها وآب من هذه الرحلة يبشر بالتسامح والاعتدال ويدعو الى المصافاة بين الاديان ؛ ويرى ان محاولة اقتلاع أصول دين من الاديان معناها القضاء على سائر الاديان وقد قضى رينان حياة طاهرة تقية أشبه بحياة القديسين

الأبرار؛ ولم يرد على أحد من شاعيه ومنتقصى فضله، ولم يتعلق
أمته فلم ينغمس في اطراء فرنسا، ذلك الاطراء الاجوف الذي
أولع به بعض الكتاب الفرنسيين. وبعد الحرب السبعينية
وهزيمتها لم يضع وقته في اراقة الدموع وندب الحظ والحض على
الانتقام بل عمد الى شرح حقيقة الموقف لامته وتبصيرها بالخطا
التي جرت عليها الولايات. وكان يكره الجدل في محادثته كما يكرهه
في كتاباته. ويميل الى الاتفاق مع محادثه وتجنب المعارضة ويرى
مهزلة الحياة بقلب عاطف ولكنه لا يأخذها مأخذ الجد ولذا
عاب على بطله « مرقس اورلياس » صرامته وسخر بالرسول
« نولس » لفرط تعصبه. وكانت رحلته الدنيوية سعيدة مكالة
بالنجاح أزهيرها المتفاوحة أكثر من أشواكها الدامية؛ وقد
أجبتة النساء الثلاث اللواتي يهمن الانسان حين وهن شقيقته
وزوجته وابنته. وقد لاقى منيته في هدوء جدير بحكيم مثله
فكان يقول في ساعته الاخيرة « ان الموت هو قانون الطبيعة
فلنخضع له صابرين » وقد روى عنه (ادمون دى جونكور) في
يومياته حادثة لا تخلو من تصوير صادق لاخلاقه وقد حاول رينان
أن يشكك فيها ولكن ما عرف عن ادمون دى جونكور من
الإمانة في الرواية وتجري الدقة في التصوير يجعلنا نصدق ونبسط
المصدر لرينان لاضطرابه الى التشكيك في الرواية وبأسأفلها هنا

موجزة تجافيا عن الاطالة قال دى جونكور « ذهبت لتناول الغداء
فى « البربانت » يوم ٦ سبتمبر سنة ١٨٧٠ فرأيت رينان على المائدة
الكبرى فى القاعة الحمراء يطالع فى صحيفة ويشير اشارات بذوايعه تدل
على اليأس . وجاء سنت فكتور ونفزر ودى مسنيل وبرتلو .
وغيرهم وجلسنا جميعاً لتناول الغداء وجرى بنا الحديث الى ذكر
الهزيمة الكبرى والعجز عن المقاومة وعدم كفاية رجال الدفاع
الوطنى ولعننا الهمجية البروسية فقال أحدا الحاضرين « أن الاسلحة التى
تستلزم دقة فى الاستعمال لاتلائم مزاج الفرنسيين . وجنودنا
يميلون الى اطلاق النار بسرعة ثم اشهار الحراب عقب ذلك واذا أردتهم
على غير هذا التواء فى يدك وشلت حركتهم فجعل الفرد آلة لا يصلح
لهم على حين إنه سر تفوق البروسيين »

فرفع « رينان » رأسه من الطبق وانفجر قائلاً « فى كل شىء
درسته هاتى تفوق الذكاء والجهد الالمانى . فليس غريباً تفوقهم فى
فن الحرب الذى هو على ضعته فن معقد . نعم ياسادة أن الالمان
شعب راق »

فصبحنا به من جميع النواحي فجعل يقول وقد ازداد تحمسه
« نعم أن الالمان أرق منا بكثير لأن الكاثوليكية تمطل المدارك
وتوقف تقدم العقل على حين أن البروتستانتية تنهى القوى
وتشحذ المدارك » .

ثم حول « برتلو » الحديث الى موضوع آخر ولكن رينان ظل مسترسلا في شرح نظريته لجيرانه وحشد البراهين على صحتها . فاعترضه دى مسنل بهذه الملحوظة ، « أما من جهة الشعور بالاستقلال عند مزارعي الالمان فانا أستطيع أن أقول لك إنني كنت أركلهم ليجتمعوا الى الحيوانات المصادة عند تجولى الصيد في برلين » .

فقال رينان « إنى أوثر المزارعين الذين يركلهم الانسان على هؤلاء المزارعين الذين جعلهم حق التصويت العام سادة لنا » .

وشرح « برتلو » يشرح لنا نبوءاته غير السارة ؛ وعند ما أنهى شرحه قلت « إذن قضى علينا ولم يبق لنا إلا أن نعد جيلا للانتقام . وهنا صاح بي رينان ونهض من مقعده وقد أحمر وجهه « لا لا لاقتل الانتقام . فلتهلك فرنسا ولتهلك بلادنا ، فإن هناك شيئا أسوأ من الوطن ، وهو « الواجب والعقل » وأخذ يتلو آيات من الكتاب المقدس بصوت جد مرتفع .

بقيت مسألة لا أحب ان أختم الكلام عن رينان دون الإشارة إليها وهي مسألة علاقته بالساميين ، وكانت بعض فروع هذه المسألة مثارا للخلاف وبأبدا الحلة من الحملات السخيفة الهوجاء التي برع فيها بعض المعاصرين ولكن الذى يعرف صراحة رينان وسمو فلسفته لا تغضبه إلا راء التي غرض بها من فضل الساميين ووصفهم فيها بما لم يحبوا أن يوصفوا به . وليس من الانصاف في الكثير ولا في القليل أن نطلب

الى كل باحث نزيه أن يتملق مشاعرنا ويترضى زهونا ويستيق أراء
رينان قائمة حتى يحصها ناقد من طراز رينان في غزارة العلم وقوة
الفكر والتضلع من الفلسفة فيثبتها أو ينفيها . وقد حلل رينان
العقلية السامية في كتاب يعد ذخيرة من ذخائر الادب وطرفة من
طرف البحث ويجدر بقراء الادب العربي دراسته واقتناؤه . وأن
الثناء لقليل على المجهود الكبير الذى بذله فقيده الادب والصحافة
المرحوم فرح أنطون في نشر الفلسفة الرينانية في ربوع الشرق .



المحاور الفاسفية

الاهراء

— إلى المسيو مرسلان برتلو —

ساءلت نفسي غير مرة حيال أفكار معينة في هذه الصفحات كنا نتجاذت عنها الحديث سويا آلاف المرات أهي أفكارى أم أفكارك . فقدت امتزجت أفكارنا في الثلاثين سنة الاخيرة وتأكدت علاقتنا الفكرية الصميمة حتى صار من الصعب على أن أميز أفكارى من أفكارك . بل ما أشبه محاولة ذلك بمحاولة تقسيم أعضاء الطفل بين الام والاب . ففي بعض الأوقات كانت جرثومة الفكرة لك ، وكانت تنميتها من عملى وفي وقت آخر كانت الجرثومة لى ولكنك أنت الذى جعلتها مشمرة . فكل شىء صالح استطعت أن أقوله عن الكون فى كليته الشاملة أطلب اعتبارك لك . وأنا من ناحية أخرى أدعى لى جانباً فى تكوين روحك الفلسفية ولا أطلب أكثر من ذلك .

كنت فى الثامنة عشرة وكان عمى اثنى وعشرين سنة عند ما بدأنا نفكر معا وكنا حينذاك مانحن عليه اليوم وشبوبيتنا الجادة التى عنت لها آمال سرعان ما خابت تلتها أعوام النضوج المفعمة بالاحزان . غراينا فرنساترتكس فى حمأة الضعة والحماقة والجهالة عقاباً لها على انخطاء لم ترتكبها . وجيلنا الذى خدعه أولاده الأكبر منا سنا

له الحق فى الشكوى . وكل جيل مدين للجيل التالى بالنظام .
الاجتماعى المؤسس الذى ورثه عن الاجيال السابقة ، وهؤلاء الذين
كان عليهم أن يورثونا وطننا حرا بعد أن أحدثوا انفجار فبراير
القاتل مهدوا السبيل على الرغم منا لكارثة ديسمبر وعند ما وطننا
نفوسنا على أن تتبع فرنسا فى الطريق الذى انساقت فيه هوى
كل شىء من جديد وأرغمنا على الانتظار خمس سنوات قبل أن .
بروق الساسة المتنفذين الذين جروا علينا الولايات أن يعترفوا بعجزهم
فهل ترى أياما أحسن ؟ وهل تكون شيخوختنا مثل أو آخر .
أيام الشاعر العبرانى الذى جمع فى سرور ، الحصاد الذى زرعه بدموعه ؟
أنت ترجو ذلك وأتئى أن تكون على صواب ! لقد ارتكبت .
أخطاء كثيرة حتى لم تبق أخطاء لترتكب . وإذا كانت فرنسا
تنوى أن تستأنف لعب دورها الشريف فى العطف والحرية .
واحترام الجميع فإن العالم سيجبها وستكون هزيمتها أنفس من .
أشد الانتصارات تألقا إذا ضربت للعالم مثل الأمة الحكيمة بلا
قادة ، والذكية بلا سادة . وبأى سرور وارتياح . اذن أمحو كل
تنبؤاتى المحزنة ! ولم سأكون مسرورا فى الرجوع عنها ! وأرى
فى نفس الوقت أن عملنا هين . لنضعف مجهودنا ، وأنا أشعر فى
نفسى بشىء من مرونة الشباب وحدته . وأريد أن أبدأ شيئا من
جديد . ولا بد أن يكون المسيو « هيجو » ومدام « ساند » قد

أقنما الدنيا بأن العبقرية لا تعرف الشيخوخة . ويجب أن يرغم
تين وأبوت وفلو بير الناقد على التسليم بأن أحسن ما كتبوا حتى
الآن لم يكن سوى مجرد محاولات . ويجب أن يكتشف
كلود برنارد و بلياني بعد أسراراً جديدة عن الحياة ، وأنت
نفسك يجب أن تبده الناس بتركيب جديد . وعليك أن تجد
الهجوم على الجوهر الفرد لثري هل هو غير قابل للعدم كما يقولون
يجب على كل منا أن يفوق نفسه حتى يقال عنا إن الفرنسيين
لا يزالون أبناء آبائهم . ومنذ ثمانين سنة خلال حكم الارهاب كتب
كوندورسيه كتابه مختصر تقدم العقل البشرى وهو فى مغبأه فى
شارع سرفاندونى ينتظر الموت



مقدمة المؤلف

إن المحاورات التي تكون الجزء الأهم من هذا الكتاب ^(١) كتبت في فرساي أثناء شهر مايو سنة ١٨٧١ وكنت برحت باريس آخر أبريل وقد جرحت قلبي الضلالات التي شاهدها هناك واقتنعت بأنه ليس في مستطاعى أن أقوم بأية خدمة للعقل . ولما كنت محروما من كتيبي مشردا عن مجال عملي قضيت ساعات هذا الفراغ الذي أكرهت عليه في الانثناء الى نفسي وتدييح موجز لاعتقاداتي الفلسفية وبدا لي أن كتابتها على شكل محاورات أوفى بالغرض خلوها من الجزم ولأنها تسمح للانسان بان يتناول الوجوه المختلفة للمسألة دون أن تضطره الى الانتهاء الى نتيجة ، وأنا الآن أقل مما كنت في كل أدوار حياتي شعورا بالجرأة على الكلام بلهجة الواثق في هذه المسائل ، والقطع الثلاث التي أقدمها هنا لجمهور غايتها تصوير سلسلة من الافكار قد تطورت تطورا منطقيا دون أن ترمى الى أن تقر في الذهن رأيا خاصا ولا أن تبشر بمعتقد معين ، والمسائل التي تناولتها هي من تلك المسائل التي لا يفتأ الانسان يفكر فيها حتى وهو يعرف حق المعرفة بأنها لا تحل أبدا . والغرض

(١) الكتاب الأصلي يشمل هذه المحاورات وشذرات أخرى

في الفلسفة وقد اختصرت على ترجمة المحاورات « العرب »

الذى قصدت اليه هو حفز القارئ على التفكير وإثارة الحاسة الفلسفية فيه في بعض الأوقات بمبالغات خاصة . ولا يتطلب مجد الانسان أن يجاب على هذه المسائل إجابة قاطعة ، وإنما يستلزم أن لا يكون غير مكترث بها . ولم يمنح أحد القدرة على سبر أعماق الهاوية ، ولكن العقل الذى لا يهفو به الاغراء الى أن يلتقى ببصره من الحين الى الحين صوب أعماقها ، عقل قريب الغور ضحاضح .
وإني قبل أن أقول أن تفهم هذه الملاحظات على وجهها لأعلم علما ليس بالظن ، سوء التأويل الذى يستهدف له الانسان عندما يتناول المسائل الفلسفية والدينية . وإني مستسلم مقدما الى أن الناس يستنسب الي مباشرة الآراء التى يصرح بها المتحاورون حتى عندما يناقض بعض هذه الآراء البعض الآخر . وإنما أكتب للاذكاء والمستنيرين . وهؤلاء سيسلمون التسليم كله بأننى لأصله لى بأشخاصى . وأنه لا يجب أن تلقى على مسئولية الآراء التى يبسطونها وكل واحد من هؤلاء الاشخاص يمثل فى درجات متفاوتة من التأكد والاحتمال والتوهم أوجه الفكر الحر المتتالية . وليس أحد منهم اسما مستعارا قد اخترته ليعبر عن عواطفى جريا على الطريقة التى يسير عليها كتاب المحاورات

ولسبب أقوى أعارض ضد التأويل الذى يريد أن يرى تحت هذه الاسماء الموضوعه فلاسفة أو علماء من المعاصرين . والمتحاورون

في هذه المحاورات هم محض تجريدات. وهم يمثلون مواقف فكرية موجودة أو ممكنة لأشخاصاً حقيقيين وليست هذه مثل المحادثات التي أولع القدماء بتصور وقوعها بين أشخاص من الموتى أو من الأحياء. وإنما هي محاورات هادئة اعتادت أن تنتج اليها أفكارى عندما كنت أرخى لها العنان لتسرح طليقة حرة. ولقد انقضى عصر المذاهب المطلقة فهل يقال إذن أن الانسان قد كف عن البحث وراء نتيجة منطقية في حلقة حوادث الكون؟ لا. وإنما قديماً كان لكل إنسان مذهبه الفلسفي. كان من أجل هذا المذهب يحى ويموت. أما الآن فنحن ننتقل على التوالى بكل المذاهب. بل نفعل ما هو خير من ذلك، إذ نستوعبها جميعاً مرة واحدة.

وعندما أعدت القراءة بعد انقضاء خمس سنوات في هذه التأثيرات التي قامت بنفسى في أوقات محزنة وجدتها حزينة مُمرّة. وتريثت أول الامر في طبعها. ولقد عانيت من عصر الشدة الذي مرّ بنا كابوساً. وكان على الانسان اذا أراد أن يعبد الله في ذلك الوقت أن يرسل النظر الى أقصى الابداء أو أن يصعده كل مصعد. وكان الله الصالح هو الآله المغلوب على أمره. وعبثاً استغاث به الناس. كنا لا نرى مَنَ نه سوى (آله الجيوش) الذي لا يلين ولا يتأثر الا برقة آداب فرسان الامان، ولا يهزه سوى تفوق القنابل البروسية غير المتكسور. وكنت قد فقدت رؤية الآله الارق الذي التقيت به

منذ خمس عشرة سنة في طريق الى الجليل وتحدثت معه أثناء الطريق أحاديث عذبة مروحة^(١). ولقد قالت لي سيدة ناهية كنت أعرتها الاصول (لا تقدم هذه الاوراق للطبع فهي ترمي القلوب بحاصب من الثلج)

وقد زاد في مخاوفي الموقف السياسي الذي جرت اليه الحوادث فرنسا. لأنه لاجل أن تفكر خرا يجب أن تكون متأكداً كل التأكد من أن ما تقدمه للطبع لا يجر الى سابقة. وفي الحكومة التي يهيمن على شؤونها ملك في يده أزمة القوة المسلحة يكون للانسان ضمانة أوفى إذ يعرف الانسان أن المجتمع في صيانة من أخطاء نفسه، أما عندما يكون المجتمع غير معتمد الا على نفسه فإننا يمكننا الخوف إذ نخشى ان يهز التنفس القوى البنيان المتداعي الذي يحتمي به الناس. والمجتمع المتمركزة قوة دفاعه في نفسه، عليه احتياطات ليراعها أكثر من المجتمع المسلح من الخارج، ومن ثم كانت الجمهوريات - ولو أنها في الغالب أكثر ملاءمة لحرية الفكر من الحكومات الملكية - مفعرة بحرية الفكر من طريق غير مباشر لشدة الحيلة التي يلجأ اليها الفيلسوف خشية أن يسوء ذوو العقول الضيقة فهم مقاصده وبعد أن روت في الامر واستنصحت ذوى الرأي وحذفت بعض الافكار الشاذة، عقدت العزم على أن أقدم للقراء الالباء هذه

(١) لم تنقد قلوبنا داخلنا عند ما كان يجاذبنا الحديث.

الصفحات المكتوبة لهم . أما الذين لم يتعودوا معالجة مثل هذه الأفكار فلا بأس عليهم من مثل هذه السبحات وسيرونها تخلوا من المعنى . اما هؤلاء الذين تعودوا البحوث الفلسفية فانهم سرعان ما يعرفون إن غرضي الوحيد كان إثارة التفكير في هذه المسائل التي لا يمكن أن نمر بها سكوتاً دون أن نسيء إلى الحق ، وحرصى على أن أكون واضحاً وأن أثبت في أفكارى قوة وأزيتها حدة كان يجعاني في بعض الاوقات ألجأ الى طريقة مشابهة للطريقة التي اتبعها «جان بول رختر» في القطعة المشهورة حيث أراد أن يثير في النفس استفظاع الاتحاد فجعل المسيح يدثر به . والوسيلة الصادقة الفعل في اظهار أهمية فكرة هي ان نلغى هذه الفكرة ونرى ماذا تصير اليه الدنيا بدونها . وآمل ان اطبق يوماً باستفاضة وتوسع هذه الطريقة في الشرح الفلسفي في كتاب اسميه «فروض» ارسم فيه سبعة او ثمانية مذاهب للدنيا ينقص كل منها عامل رئيسي . وبهذه الوسيلة يصير الدور الذي يلعبه هذا العامل في نظام الاشياء واضحاً جلياً بحيث تدركه اضعف البصائر

والا كثرة الكبري من الناس ينقسمون تلقاء هذه المسائل الى قسمين . ويظهر لى ان الحق على مسافة متساوية من كليهما ، ويقول الارثوذكس من كل الطوائف « إن ما تبحث عنه موجود منذ زمان طويل » اما العالم الإثنائي (وهو وحده موضع الخطر) والحاكم

السياسى والملاحد فيقولون « إن ما تبحث عنه لا يمكن وجوده. »
حقيقة أنه لا يمكن أن يعرف الانسان صيغة اللانهاى الحى. ولكنه
أيضا لا يستطيع إنسان أن يقنع الانسانية بأنه لافائدة من النزوع الى
معرفة الكل التى هى جزء منه، والذي يسوقها على الرغم منها. ونحن
نعرف غزارة تلك الصور البديعة التى حاول فيها رافائيل على قباب
لوجيا، وميشيل انجلو على سقوف كنيسة سيستينو، أن يصورا بدء
الخليقة، ولكن من الذى لا يشوقه وجودها؟ والفلسفة تابعة لليوم
والساعة، فقد تكون محاولة حمقاء تافهة سخيفة، وقد تكون الشيء
الجدى الوحيد. ومن خطئ رأى أن يكب عليها الانسان كل
الكباب إذ يستفرغ جهده وراء شيء لا ينى ينصل منه. وكذلك
لا يبنى للانسان أن يعرض عنها إذ يدل بذلك على عامية العاطفة وقلة
ساحة العقل. ولا يكون غاية مثالية وهو يخدم غرضا مقدسا، وليس
الكون محض تفاعل بغير جدوى خاتمة النهائية لاشيء، وإن غاية
الانسانية هى أن يسود العقل، والعمل على نصرته هو واجب الانسانية.
وعبثا تحاول ردها عن هذا المقاصد السامية. وعندما تخرج الانسانية
من حظيرة الادراك المادى الضيق ستفتنم فرصة هذه الحرية لتركب
رأسها وتثبت بذلك ان الذة الوضيعة لا تشفى عليها
ومن ثم كان كل تفكير ينقل الانسان خارج دائرة الأثرة
المحصورة، مفيدا وصالحا للعقل، مهما كانت الوجهة التى ينتجها هذا

التفكير . وإن تجديف ذوى العقول الكبيرة لأحب إلى الله من
توسلات العاى الجاف المفرضة . لأن التجديف وإن كان يدل على
نظر إلى الأشياء ناقص ، هو من بعض الوجوه معارضة عادلة . فى حين
أن الانانية ليس فيها مثقال ذرة من الحق . وهناك ملاحظة واحدة
هامة ويجب أن أصر عليها . وهى أن هذه التفكيرات ليس لها
تطبيق عملى وهى فى كل الاحوال مثل الشك النظرى عند «ديكارت»
تفترض وجود قوانين سابقة يأخذ بها الناس أنفسهم وخير ضمين
لها الطبيعة الخيرة . وأن حلاوة الشمائل وحسن النية للجميع
واحترام الكل وحب الناس والحدب عليهم والعطف العام الشامل
والتودد لكل المخلوقات هى القانون الاكيد الراسخ الذى لا يخدع .
فكيف تأتاف مثل هذه المشاعر مع سيادة الطبيعة الشديدة الوطأة ،
والاعتقاد بسلطان العقل المطلق ؟ لست أدرى ، ولكن هذا أمر
قليل الاعمية ، والخير لا يقوم على نظرية ونحن نستطيع أن نحب
الناس مع استمساكنا بفلسفة ارسقراطية . وقد لانضم لهم
الحب ونحن نباهى بمبادئ الديمقراطية . واذا تعمقنا فى النظر
وجدنا أنه ليست المساواة هى الخالقة لحلاوة الشمائل وعذوبة
الأخلاق . بل إن المساواة الحاسدة — على الضد من ذلك — هى التى
توجد الزهد والغلظة . وإن أحسن قاعدة للإصلاح هى التسليم
بنظام مشمول بالعناية لكل شىء فيه مكانه وطبقته ونفعه وضرره

معا . وليست الناس متساوية . وليست الشعوب متساوية . فالزنجي
مثلا خلق ليخدم الاشياء العظيمة التي يريد لها الابيض ويتصورها
ولا يتبع ذلك أن العبودية المرزولة في أمريكا كانت حقا . فليست
الناس كلها لها حقوق فحسب . بل ان الكائنات قاطبة لها حقوق .
وأحط طبقات الانسان أرق من الحيوان بكثير . وعلينا واجبات
حيال الحيوان . وليس يكفي أن لانسىء الى أى كائن بل يجب أن
نعمل خیرهم وأن ندلهم ونواسيهم ونهون عليهم جفوة الطبيعة التي
لامناس منها . ومادمننا واتقین من هذه المبادئ فلنسترسل في دعة
وتترفق مع أحلامنا الشريرة . ولنقدمها نلطيح مادام من أسلم نفسه
للجمهور مديننا له بكل جوانب فكره . وإذا أحزنت هذه
الافكار أحدا فليس علينا سوى أن نقول له قاله الخورى الصالح
لسامعيه لما أسال عبراتهم وهو يعظمهم عن «الهوى» يا «أولادى»
«لا تفرطوا في البكاء الى هذا الحد . لقد كان ذلك منذ زمن بعيد .
» وربما لم يكن صحيحا «

والفكاهة الطلية تصلح كل فلسفة . ولست أعرف فلسفة
فخرحة ، ولكن الطبيعة أبدا في ريعان الشباب ولا تفرعن الا بتمام
الينا . ولا تضيق بها المذاهب بل هي تخرج من أشد المآزق حروجة ،
وعند أول وهلة ترى أن الانسانية في عصرنا قد انسافت في طريق
لا تخرج منه . فان المعتقدات القديمة التي لابس الانسان في ظلها

الفضائل قد تصدعت جوانبها، ولم يحل محلها شيء، ويكفيننا نحن ذوى العقول المثقف ما توجده المثالية مكان هذه المعتقدات. لاننا لا نزال نعمل تحت تأثير العادات القديمة. ونحن نشبه الحيوانات التى ينتزع منها علماء وظائف الاعضاء، لتهن وتبقى برغم ذلك تؤدى وظائف خاصة حيوية بمجرد قوة العادة. ولكن هذه الحركات الغريزية يعتريها الوهن على مر الزمن. وسيرى الكثيرون ان عملنا الخير نرضى به الله — اذا كان موجودا — صيغة خالية من المعنى. ونحن نعيش على خيال الخيال فعلى ماذا يعيش بعدنا الناس؟ شيء وحيد لا يتسرب اليه الشك وهو ان الانسانية تستمد من القلب كل ما يعوزها لصياغة الاحلام ونسج الاوهام لتقوم بواجبها وتم ما قسم لها. ولم يخذلها ذلك فى الماضى. وهى لا تنقشل فيه فى المستقبل.

وأخشى فى بعض الأوقات أن يلومنى الناس لأنى قد استسلمت للهو الفراغ الاثيم لاسترسالى مع أوهام لا ضرر منها، على حين كانت بلادى تعاني أشد محنة قاستها. وأجواب على ذلك بما أجبت به من قبل غير مرة. وهو أننى كنت على الدوام طوعاً أمراً أمتى: ففى سنة ١٨٦٩ لما دعانى عدد كثير من الناصحين لارشح نفسى لعضوية مجلس النواب قمت تلبية لهذه الدعوة بتضحيات شخصية كثيرة. وكان الشيء الوحيد الذى لم أستطع أن أقهر نفسى عليه هو أن أقو

كلمة أكثر أو أقل مما أعتقد أنه لائق بأن يقال . ومثد ذلك .
الوقت كررت أنني لايسمى الا النزول على إرادة مواظنى فى كل
المهمات التى يريدون اناطتها بى . وكل شفاعة فى مثل هذه الحالات
أعتبرها فى غير محلها ، والمسئوليات السياسية فى مثل هذه الاوقات
المضطربة لايجب أن يسعى وراءها ولا أن ترفض . فالذين يجرون
وراءها حتى خفاف الاحلام ، والذين يرفضونها مؤثرين الراحة
والابتعاد عن أخطارها يجب ان نعتبرهم أنانيين ، وأنا هنا أرفع
الصوت بانه لو كانت بلادى قد وكلت الى واجبا من الواجبات لكنت
قبت به بكل شجاعة ، ولكنت استنفدت فيه كل ما أوتيت من
همة وقدرة على العمل

المحاور الأولى

مؤتمرات

فيلايت — اتيفرون — ايدوكس

اتيفرون وايدوكس وفيلايت ثلاثة فلاسفة من المدرسة التي
مبادئها الأساسية عبادة المثل الأعلى، وإنكار ما فوق الطبيعة، والتزام
الاستخيار التجريبي للواقع. وقد برحوا باريس في غرة شهر مايو
سنة ١٨٧١ وجعلوا يتمشون في ناحية منعزلة من حديقة فرساي وقد
بهظهم الحزن لما حل بديارهم من حيف الحوادث وتحامل النكبات.
وكان ايدوكس يحمل معه نسخة من كتاب «محدثات فيما بعد الطبيعة»
لما برانش. ثم جلسوا وشرع ايدوكس يقرأ في المقالة الثالثة عشر:
«ما أجل وأجل فكرة العناية الإلهية التي أخذتها عنك
ياتيودور! وما أخصبها وأكثر نورها! وما أصلحها لكم أفواه
الفئة السادة وحزب المناهذين الدين! ولست أعرف مبدأ ما يتضمن
نتائج أجدى صفة على الدين والاخلاق منها. أي ضوء تسكب
وأي مشكلات تحسم! وليس ثمة من مظهر من المظاهر التي
يناقض بعضها بعضاً في نظام الطبيعة وتدير العناية يدل على أن
هناك تناقضاً في السبب الذي أنتجه. بل هي على النقيض براهين

كثيرة جليلة على أحكام تصرفه ، والشرورا التي تحيق بنا وكل ما يعترض
سبيلنا من أسباب التخبط والتشويش يتفق اتفاقا تاما مع حكمة
المهيمن وصلاحه وعدالته ، وإن صنع الله ليتم بطرق تحمل طابع
صفاته . وإني لمكبر لسير العناية التي تحوطنا ذلك ، السير المبدع
الفائق »

« تيودور — إني أتمح من كلامك إنك يا ارست قدأحسنت
الاصغاء الى الفكرة التي شرحتها لك وتقبلتها ، إذ لا تزال متأثرا
بها الى الآن . ولكن هل وسعتها فهما وأحطت بدقائقها خبرا ؟
لا يزال يخامرني في ذلك الشك . ومن الصعب على الاعتقاد بأن
وقتنا قصيرا كهذا كافيا لك لتكون قد تعمقت في درسها وفهمتها
على الوجه الصحيح . ورجائي أن تبسط لنا بعض تفكيراتك
لأنتخلص من الشكوك وأشعر بالاعتناع . وأنه كلما كانت الفكرة
أجزل نفعا وأوفر ثمرة ، تفاقم الخطر الناجم من عدم فهمها فهما
واضحا تاما . »

« ارستس — أوافقك يا تيودور على ذلك . ولكن ما شرحتة
لنا واضح المعالم والنهج الذي جريت عليه في الابانة عن العناية يتكافأ
كل التكافؤ مع فكرة الموجود الذي لا تحد عظمته ، ومع كل
ما تلحظه حولنا من الاحداث ، حتى إني لا أشعر تأكدي من صدقها . »

ايدوكس

ينقص تلك الفلسفة شىء قابل جدا في بعض الاوقات ليحملنا
على قبولها قبولاً كاملاً . وإن فكرة ملبرانس القائلة « بأن الله
لا يعمل بمشيئآت خاصة » يمكن قبولها بارتياح واعتبارها محصو­
لاً نهائياً لفكرتنا عن العدالة الإلهية »

فيلاليت

من المؤكد أن معرفة ما برانش العالم لم تكن تامة إذا قيست .
الى ما أمكننا الوصول اليه . ولكنه تمكن مع ذلك مر أن يخرج
منها بنتائج حكيمة

اتيفرون

إذا أمسكت عن الكلام في طائفة متناقضاته التي أعفیه من .
الوم فيها لتقديرى أحوال عصره وفقدان ذلك العصر روح الاعتدال .
ولعلمى بما سببه له مركزه الدينى من الارتباك ، فأنى لا يمكنى
الموافقة بلا معارضة على أفكار عن العالم كافة لم تنضجها الروية . وإن
كل ما يعلمه الانسان انما هو نتيجة تجارب تمت قبل يومه وخارج
دائرته ولكنها انتهت اليه بالسماع أو بالمطالعة : وعندما تتناول
تلك الحقائق بالاستقراء والتعميم نحصل بقدر ما على أفكار صحيحة .
خاصة بأجزاء من الكون . أقول بقدر ما ، لأنه من أجل أن نؤكد

أى شىء عن أى جزء من الكون بصورة مطلقة لاسييل
للشك فيها ، يلزم أن نكون قد ألمنا بالعدد اللانهائى من الحقائق
التي يتكون منها هذا الشىء . وهذا عمل من وراء طوق العقل
البشرى ، وتشبه معرفتنا من هذه الوجهة خريطة تخطيطية مفصلة
مرسومة بمقدار من الدقة ، إن قليلا وإن كثيراً ، وإن أحسن
الخرائط اتقانا وإبداعا لبعيدة عن أن تكون مطابقة لنفس الصقع ،
ولكنها مع ذلك تعطينا فكرة عنه . بل إن أقل الخرائط دقة
وعناية ، ليست عديمة الفائدة

وكما اتسعت معارفنا وتراكمت حدودها فقدت مقداراً من
الثبت والتأكيديوازى هذا التمرد والاتساع ، فإذا يكون إذن
إذا زعمت نظريتنا إنها تشمل الدنيا برمتها ؟ يذكركنى موقفنا فى
تلك الحالة بالتأثير الذى قام بنفسى إحدى الليالى فى إيالة « بسكا »^(١)
وكان هناك مصباح ينير الرمل والخصباء الى مسافة خطوات قليلة ،
ووراء هذه الحلقة الصغيرة من النور غياهب الظلماء متراكبة ولو
حاولت أن أضمن وجود سهل أو جبل أو نهراً أو صخرة على مسيرة
كيلو متر من المكان ، لسكان ضامى هذا دعوى لا يقرها العقل . واننا
لننحو هذا النحو فى تفكيرنا إذا حاولنا أن نحكم على العالم كافة من
البقعة التي نقيم فيها .

(١) فى الجزء الاوسط من شرق بلاد المجر

فيلايت

إذا ربأنا بأنفسنا عن أن نكون في مرتبة الحيوانات التي
لا تشغل بالها إلا بالعرض الذاتي من حواسها وجشع شهواتها، فإننا
مرغمون على أن نكون مما نراه فكرة عما لا نراه

اتيفرون

ليكن ذلك كذلك، ولكن ينبغي لنا أن لا ننسى أن آراء
كهنه لا تزيد على ما سماه القدماء « عقائد الفلاسفة » وإن شكا على
لايني يرفرف فوق هذا الضرب من المباحث الفكرية ولا يبرح
الشك يقفوا أثر كل مسألة متحامية الحل. أليس تركيبنا ^{لنفس} النفس
في صميمه وهو العين التي نبصر بها الواقع — عرضة لأن يغش
ويخدع؟ ألسنا ^{الذين} الأغيب لوم لا مفر منه؛ من المحال أن نجيب على
سؤال كهذا دون التورط في القياس الفاسد

فيلايت

ليس من عادتي أن أقف مدفعا مصدودا إزاء هذا الشك
الذي أفضى بكثير من الفلاسفة إلى طريق يضل سالكه. وبما أننا
عندما نستعمل آلة العقل استعمالا علميا ونعتبرها مقياسا صادقا ثابتا
للاواقع، لا تقع في الخطأ، فإننا مضطرون إلى أن نستنبط من ذلك أن
هذا العقل مقياس صالح يصح الاستناد عليه والأخذ به، وتثبت

صحة الميزان إذا غيرنا المقادير الموزونة وحصلنا على نتائج ثابتة

ايدوكس

أضف الى ذلك أن الانسانيه ليست وحدة كما تصورها « ديكارت » وكما تصورها « كانت » نفسه . وإننا نعرف انسانيات عدة . أشهرها نوعان رئيسيان . ذلك النوع الذى تناسل فى آسيا الغربية والنوع الذى انتشر وتزايد فى آسيا الشرقية . وأقصد الصين . وهذه الانسانيات المتنوعة — ولو أنها غير متساوية فى الانتشار — قد صيغت نفسياتها على مثال واحد تقريبا . ولسنا نعدو الحق . اذا قلنا إن الانسانيات الأخرى الشائعة فى فسيح المكان لا تختلف عنا اختلافا جوهريا من ناحية تصورات العقل والاخلاق الاساسية . ولقد يكون الاختلاف بيننا وبينهم أقل مما يختلفه رجل صينى أو أندمانى (١)

فيلاليت

هذه أوقات محزنة . وهانحن نسائل أنفسنا عشرين مرة فى اليوم هل للحياة قيمة وقد هوى كل ما كنا نحب من شاهده . سعيد الرجل الذى لا يزال يعتقد فى مدينة الله الخالدة ، والذى يمكنه أن يتلقى الموت ببشاشة وسلام كما تلقاه القديس « اجستن »

«أثناء حصار «هبون». أتريد أن تستعرض أفكارنا العامة عن الله
والكون؟ الرأي عندنا أن نعاود التفكير في هذه المسائل كل عشر
سنوات لاجل أن نعمل لا نفسنا ما يشبه الميزانية للمقادير التي
استبدلت منذ التصفية الأخيرة

ايدوكس وايفرون

بكل ارتياح وقبول

فيلاليت

أما عن نفسى فن. عادتي تقسيم أفكارى في هذا الموضوع الى
ثلاثة أقسام. القسم الاول، وهو لسوء الحظ أضيقها حدودا، هو قسم
المؤكدات. والقسم الثانى قسم المظنونات. والقسم الثالث قسم
المتخيلات. وسنمسك يا ايفرون عن الإشارة الى الاخير إذا شئت
ولو انه ربما كان الاعز علينا جميعا.

ايفرون

الأحلام صالحة ومفيدة على شريطة أن نأخذها على أنها
أحلام. ألا تتذكر نظرية «هجل» العظيمة «إنه من اللازم أن نفهم
الغير مفهوم كما هو»

ايدوكس

يمكن فيلاليت أن يتقدم إلينا الآن بشرح المؤكدات من
سكاره عن العالم بكمليته

فيلاليت

عند ما أفكر في العالم بكليته أرى شيئين مؤكدين إلى حد
إلّانى إذا لم أوفق، في الكشف عنهما لكل من ألم بمبادئ العلم
فحسب ذلك قصور منى في التعبير عنهما. الأول هو أننا عندما
تتناول بالتحليل كل ما يحدث في الكون داخل حدود المشاهدة
لأنرى أثر الكائنات معروفة أسمى من الإنسان تعمل بمشيدات
خفية كما يزعم ملبرانش

(ايدوكس)

وضح لنا طريقة فهمك لهذه الكلمات

فيلاليب

لو لم يكن الانسان في هذا الكوكب السيار الذى نسكنه
لما كان شكله مغايراً كل المغايرة لما هو عليه الآن . أو — بلفظ آخر —
أن الانسان يؤثر في تطور الاشياء بأعتباره سبباً من الأسباب
اما خارج هذا الكوكب فليس للانسان من تأثير . وذلك لأن
كوكبنا لا يؤثر في العالم تأثيراً كبيراً إلا من ناحية الجاذبية والانسان
لم يغير قوة الانجذاب وليس في وسعه أن يغيرها . ولكن مع ذلك
فانه لما كان أقل عمل ذرى ينعكس أثره في الكل . ولما كان الانسان
هو السبب المرضي على أقل تقدير لعدد من الاعمال الذرية لذلك

يمكننا أن نقول بأن الانسان يؤثر في الكل بمقدار يتناسب مع الفرق الدقيق بين الدنيا وهي آهلة بالانسان وبين ما تكون عليه وهي مهجورة خالية منه . ويمكننا أن نجزم بأنه حتى الحيوانات تؤثر في العالم باعتبارها سبباً . لأن الكوكب الذي لا تسكنه سوى الحيوانات يتخذ سطحه مظهرًا مرده الى ارادة الحيوانات الحرة مخالفاً للشكل الآلى الصرف الذي لا تلح فيه اثر اي عمل من أعمال الارادة

ومن هنا نستخلص انه اذا كان ثمت مخلوقات تعمل في الكون عمل الإنسان على سطح كوكبه أو بشكل أبلغ في التأثير لكنا أدركناها ببعض الطرق ؛ وإذا جئنا بمخلوق عاقل من دنيا أخرى الى دنيانا هذه فانه يدرك قبل أن يصادف أى انسان أن هذا الكوكب تسكنه مخلوقات عاقلة حرة مثله ماهرة في ابتكار الوسائل لبلوغ المآرب ، وأن منظر طريق أو رؤية حائط قائم أو مشاهدة صف من الاشجار كافية لتؤكد ذلك تأكيدياً لا مساعاً للشك فيه . كما روى عن أحد القدماء أنه رسا على جزيرة ورأى بها أشكالا هندسية مخطوطة على الرمل فاستدل على انه « لابد من وجود ناس هنا » . ولكن منظر العالم لا يكشف لنا الوصول الى مثل هذا الاستدلال . حقيقة ان كل شيء في الوجود تام النظام والائتزان . ولكن لا يوجد في ثنايا الحوادث قصد خفي . وكل الكوائن

تتبع سننعامه ولم يثبت مرة واحدة الشذوذ عنها لغرض خاص
وان اظهار الحذب على الرجل الفاضل أو العطف على القضية
العادلة لاحدى الحالات التى كان يمكن أن يكون من الطبيعى فيها
الخروج عن حدود تلك القوانين : ولكن شيئا مثل هذا لم يعرف
ومن خصائص الطبيعة عدم الاحساس المطلق وتساميا فوق
منازع الاخلاق أولا اخلاقتها العالية اذا اجتأأت على هذا القول
وأن لأخلاقية التاريخ والظلم الكامن فى الجماعات البشرية ليسا
أقل من ذلك فتिला . ومهما عملنا فانه سيكون من المستحيل على
الدوام أن يكون المجتمع عادلا . وأنا أعلم أن أغلب الناس يعتقدون
بوجود « آلهة » تحمى حى البراءة وتنتقم للجريمة وأنها عرضة
للاستفزاز والترقيق . وإنما كان ذلك كذلك لانهم لما كانوا لم
يتشبعوا بالروح العالمية فليست عندهم القدرة التحليلية ولا قوة
الملاحظة الكافية لادراك أنه لا يحدث فى مجرى الحوادث تدخل
مخلوقات اسمى ينم على ارادة . ولو وقع مثل هذا التدخل المزعوم
ثبت ؛ ولكنه لم يقم دليل على وجود أثر لقوة عاقلة فى سير
الحوادث وأحوال الدنيا المتشعبة الكثيرة وان عالم الملاحظة من
السمة وتراعى الاطراف بحيث لو كان وقع فيه مثل هذا التدخل
لشاهده أحد الناس

ايدوكس

أتسکر تأثير الدعاء والتوسل ؟

فيلاليت

لا انکر قيمة الدعاء باعتباره ترتيباً صوفياً ، وكل مايعرب
عن اعجاب أو سرور أو حب هو دعاء في هذا المعنى، ولكن الدعاء
المغرض — الذي يتوسل به المخلوق المحدود الى أن يقيم ارادته محل ارادة
الكائن غير المحدود — اقول مثل هذا الدعاء انكره كل الانكار واعتبره
خطأ في حق الله صادراً عن نية حسنة بلاريب . «اوزوريس يرثى
بقطعة صغيرة من الكعك » . والناس تحاول ان ترثى الله بالهدايا
الصغيرة . وفي عصور الفطرة عند ما كان يصيب السرطان احد
الابطال كانت الناس تظن ان الله يلتقمه . ومن ثم كانوا
يقدمون للاله طعاما جديدا راجين بذلك انه قد يفضله على لحم
المريض ويتركه ينجو بنفسه ، والرجل المجرد من الروح العالمية
يعتقد ان هناك كائنات تتدخل مباشرة في شؤون الدنيا ويتوهم انه
يمناجاة هذه الكائنات يستطيع ان يستجلب معونتهم في تحقيق رغباته
ولكنه لم يثبت مرة واحدة ان دعاء كهذا أسفر عن مثل
هذه النتيجة

ولقد كان الفلاسفة اليونانيون يعرفون ذلك حق المعرفة .
فان أحدهم لاء الفلاسفة — وهو دياجوراس من مدينة ميلوس —

لما رأى القرايين التى تقدم بها الملاحون فى معبد بوسيدون قال :
« الناس يحصون الذين نجوا ولكنهم لا يحصون من غرق وقد
قدم قربانا كغيره » . وهذا كلام جيد ، وفى أمثال هذه المسائل
لا يحصى الناس الا من ساعفهم الحظ ولكنهم لا ينظرون الى الذين
لم يحققوا هذه الاوهام التى نحاول نسجها حول نفوسنا . وهذا هو
تفسير المعجزات كافة ، والدعاء هو فى الحقيقة التماس معجزة لان
من يدعو الله انما يلتمس أن تتغير من أجل مصاحته الخاصة السن
التي تجرى عليها الطبيعة . والمريض الذى يدعو لشفاء عند ما يكون
من المحتم موته وفاقا لنظام الاشياء الطبيعية انما يرجو معجزة ، وهو
يدعو لينقل المرض القاتل المميت عن طبيعته والفلاحون الذين
يقيمون الحفلات للاستسقاء أو لا يقاف الامطار يطالبون معجزة أيضاً
فهم يدعون لسقوط الامطار فى وقت يقتضى نظام الطبيعة عدم
سقوطها . وهذا يتطلب انقلابا كليا ظاهر القصد فى الجو . وأن
الامطار الكثيفة التى تهطل فى شهر يونيو متوقفة على الحالة التى
طرأت على الثلجات فى القطب الشمالى فى شهر مايو . وفى حالة
كهذه يقتضى أن يكون الله الذى جرت فى علمه الادعية التى ستوجه
اليه قبل شهر من ارسالها قد ألقى باله الى حركات الثلجات وعاق
تكوينها . أو أن يكون قد منع الثلوج المقبلة نحو الجنوب من

أن تؤثر تأثيرها المألوف في تهريد الابنخرة وتكثيفها وماذا يكون ذلك إذا لم يكن معجزة؟

ولأجل تدعيم أساس الاعتقاد بهذه المسألة يلزم أن يكون في مستطاعنا أن نجرب حالات كان فيها توجيه الدعاء باعثاً على تسيير الحوادث في مجرى مخالف لما كانت تسلكه لو انقطع الدعاء . ولكن برهاننا كهذا لم يحاوله أحد بعد ولن يحاول . وما زالت الناس تدعو منذ بدء الدنيا . ومع ذلك لم يوفقوا في اثبات أن دعوة من الدعوات أو نذراً من النذور جاء بالغاية المبتغاة . ولقد عثر المنقبون حديثاً بثلاثة آلاف مخطوطة يونية كلها مشابه بعضها البعض . وكل واحدة منها يؤكد لنا فيها أحد اتقياء القرطاجنيين أن تانيت وبعل هامون قد سمعا دعاءه وأنه رفع هذه المخطوطة شاهداً ناطقاً . ولا بأس في ذلك إلى هنا . ولكن تانيت وبعل هامون آلهة زائفة . وما من أحد يقول الآن أنها كانت تستطيع اغداق النعم . فالثلاثة آلاف مخطوطة اذن شاهدة بالتورط في الخطأ وليست الابنية التي شيدت للنذور والادعية بدليل على صدق النذور واستجابة الادعية . ولو أجمعت جمهرة الناس على الاعتقاد بأنهم جربوا تأثير الدعاء لما أثبت ذلك شيئاً . ولقد كان هؤلاء القرطاجنيون يودون أن يحملونا على الاعتقاد بأنهم جربوا نفس

هذا التأثير. وكانوا واهمين في ذلك لان آلهتهم كانت بلا حول ولا قوة كما يعلم الآن جميع الناس .

ومن اليسير أن نفصل في هذه المسألة بالعودة الى الاحصائيات ففي أوقات الجذب تقيم نحو ثلاثين أو أربعين أبريشية في مقاطعة واحدة الحفلات رجاء الاستسقاء . وتمسك عن ذلك نحو عشرين أو ثلاثين أبريشية . وبمحافظة بيانات عن ذلك حفظ جيداً وبمشاهدة حالات كثيرة يكون من السهل التأكد إن كان لهذه الحفلات أى تأثير وان كانت الابريشيات التى قامت بها كان نصيبها من الرعاية أوفر من نصيب غيرها . ومما اذا كانت كمية الامطار التى غمرتها مناسبة لمجاستها الدينية

ويمكن تكرير العملية بأساليب عدة مختلفة . يمكن مثلاً أن نهى حجرتين بهما أطفال مصابة بمرض واحد مع اصطناع الحبيطة في عزلهم حتى لا يتسرب الغش الى النظام . ونسمح للمتدينين أن يضعوا في احدى الحجرتين بعض التماثم التى يقال أنها تملك القدرة على اتيان الخوارق . وترك الحجرة الاخرى عاطلة من ذلك وننظر فيما يسفر عنه هذا الترتيب من فرق محس قابل للتقدير . ولكن أحدا لم يحاول هذه التجربة ويوافقنى عقلاء الناس بأجمعهم على أنه اذا أجريت هذه التجربة فانه من السهل اليسير التكهّن بنتيجتها ويلاحظ في حوادث التاريخ عدم وجود أثر لتدخل قوة

فوق الطبيعة . وان أتقى الامم وأشدّها تعلقا بأهداب الدين يهزمها
في الغالب أمم أقل منها تقوى واستمسا كابعروة الدين دون أن
يكون في وسعنا أن نقيم الحجة على أن عناية اسمي قد صادفت فئة
غير الفئة الاقوى . وأن ما يدعونه « إله الجيوش » يأخذ على الدوام
جانب الامة التي تملك أحسن مدفعية وتستعمل أمهر قادة .
والطبيعة في تصرفاتها وتديراتها تظهر عدم الاكتراث المطلق

للخير والشر والشمس تشرق على السواء للخير والشرير
ولا يوجد ثمة حقيقة واحدة تكرهنا على الاعتقاد بوجود
كائنات محدودة خارجة عن الانسانية قادرة على العمل فوق كوكبنا
ولست أرمى من وراء ذلك الى أن انكر انكارا مطلقا وجود كائنات
عاقلة عاملة خارج نطاق الانسانية ، وانما جل ما أقصده هو أن
كائنات كهذه لا تؤثر بعملها في كوكبنا ولا في حركة النجوم . لانه
لو كان هناك تأثير خاص معين كهذا لكنا أدركناه وانتهينا الى
حقيقته . ولنفرض أن طائفة من النمل انشأت جمهوريتها في مكان مهجور
لا يطرقه أحد من البشر إلا مرتين أو ثلاث مرات في غضون قرن
ولنفرض أن هذا النمل قادر على معرفة الطبيعة والوقوف على
نواميسها ولكنه لا يستطيع أن يفسر مسألة هذا الكائن الضخم
الذي يهدده بالسحق ، ففلسفة النمل الطبيعية في هذه الحال ستكون
مماثلة لفلسفتنا ولكنه سيضطر الى تقرير ان السنن قابلة لأن تنقض

تقضا مبهما غريباً لمدة دقائق كل أربعين أو خمسين سنة عند مرور
كائن غريب هائل وقوة غامضة تعترض طريقه وتقلب كل شيء.
ولو كان في النمل فلاسفة لما خلطت قط بين مرور هذا الكائن وبين
هبوب عاصفة أو اندفاق ماء وغير ذلك من المظاهر الآلية المنزهة
عن القصد والتعمد ؛ وسيكون الانسان الذي يتصوره تصوراً
مشوباً بالغموض واللبس — في نظره شديد الشبه بالله عند القدماء
فهو كائن أقوى من الانسان يتدخل من الحين الى الحين في شؤون
الأرض وأحوال الدنيا ، ولم يثبت يوماً أن كائناً كهذا موجود
خارج عالم الانسانية . ولم تر الانسانية مظهراً يشابه المظهر
الذي توهمنا أن النمل شاهده في الافتراض الذي فرضناه ، ولقد
كانت الانفجارات البركانية والزلازل والابوثة تعتبر قديماً حوادث من
هذا القبيل ، وأنها نذير غضب الله ، ولكن في هذه الايام لا يعتقد
بذلك رجل حسن التفكير ، وهذه الحوادث تعتبر الآن طبيعية ،
وليست هنالك كاديمية من أكاديميات العلوم تقول أن من أسباب
ثورة بركاز جوريلو أو هيكل الجرائم التي يقتربها المكسيكيون
أو أهل ايسلنده ، وهناك بلاد أقل تمسكاً بالاخلاق من أهل
ايسلنده ولا تعرف فيها الزلازل

ايدوكس

أهذا هو محصول فقهاء ؟ أنه فقه معرق في النفي الى حد غريب ..

فيلايت

تمهل قليلا ! لقد بينت لك انى اقبل فرضين في الفقه واعتبرهما مؤكدين . فكما انى اعتقد اعتقادا جازما لا يتسرب اليه الشك انه لا نزوة عارضة ولا ارادة خفية تتدخل في نسيج الحوادث التى يتكون منها العالم فكذلك اعتقد انه من الواضح الواضح كله ان للدنيا غاية تسمى اليها . وانها مشاركة باستمرار على القيام بعمل مبهم خفى . وهناك شئ ينمو ويتطور بضرورة داخلية وبغريزة غير تنبيهية وبطريقة مشابهة لحركة النبات الى الماء والهواء وللمجهود المندفع بلا روية الذى يبذله الجنين ليرك الرحم . اولئك الضرورة الداخلية التى تهدى تقلبات الحشرات وترشد نشوءها وتكوينها والدنيا عاكفة على عمل شئ من الاشياء كما يقول القديس بولس « الخليقة كلها تن وتو جمع وهي فى رحلة وانتقال » . والخافز الاكبر فى سير الدنيا وحركتها هو الالم المخلوق غير القانع الذى لا يفتأ يتشوف الى النماء ولا يقرله من أجل ذلك قرار . والظروف السمحة اللينة تولد الجمود فى حين ان الضغط والمقاومة هما بدء الحركة والضغط هو الذى يجعل الماء يرتفع ويرسم سيره . وبلوغ الفتاة ينشأ من بيضة نضجت للحياة وتطلعت اليها وكل شئ فى هذا الوجود من السمك النجمي الخمس الشكل الذى يهضم — ذلك التركيب العضوى المفرد الذى كان وجوده ممكنا بلا نزاع فى اول عصور الدنيا — الى أسعى

انواع الانسان يتطلع الى الوجود ويحاول ان يؤكد وجوده ويحجز
أكبر قسط منه. وكل شيء ممكن يريد ان يرى تحقيق كيانه .
فكل شعور غامض يعانى ويجاهد لينتفى عنه الغموض وليصير
أكثر شعورا وواضح وأجلى ؛ والعالم فى آلام تطوره الذى
لا ينقطع يشبه القلب الكبير الفاض بالحب الواهن الغامض
فالجسم الكامل النظام يرمى الى تحقيق مثال ، وكلما نما يكتسب
اجزائه المختلفة ويخلق لنفسه أعضاء بمجهود لا روية فيه ولا أناة
يمكن أن تتنبأ بتأثيراته من قبل ، وكل مثال يستمد من نبعته كل
ما يحسه من ناحية كماله الفردى ، وأى اختراع بشرى يصح أن
يقارن بالمصاصات التى زود بها نفسه الاضطبوط بفن عميق متغلغل
وما يصدق قوله عن المثال الحيوانى يلزم ان تقوله عن الوطن
والدين وعن كل حقيقة عضوية ، بل يلزم ان تقول نفس ذلك
القول عن الانسانية والكون بأكمله ، ونحن نحس بأن هناك
مجهودا عظيما لتحقيق غاية وملأ مثال وبلوغ وحدة متزنة او ايجاد
شعور ووعى وان الشعور الكلى لا يزال غامضا ملتبسا الى حد كبير
وهو لا يفوق شعور الحمار أو ذوات الارجل العديدة ولكنه مع
ذلك موجود ، والدنيا تتقدم الى الامام بغريزة لا تخطئ غرضها
وان مادىة العلماء الآلية فى أواخر القرن الثامن عشر لتظهر لى
من أعظم الاغاليط التى ترتكب

اتيفرون

خذ حذرک لثلا تفضی بک وجهة بنحک هذه المسألة الى.
الاقتراب من فلسفة الأسباب النهائية العتيقة . تلك الفلسفة
الساذجة في تفسيرها وشرحها

فيلايت

لم تخطيء هذه الفلسفة الا في الصورة ، وما قد ألحقته بنظام
الكونية والخلق يلزم ان يدرج الآن في نظام التطور والنشوء
البطيء ، والتمود يقول « لعمل الملائكة كانت الملائكة لازمة لخلقها
الله » . وهذا خطأ لأن الملائكة صنعت تدريجاً وبآلات تدرجت
في التقدم . وعلى هذا الأسلوب تم خلق الانسان والحيوانات والحياة
وان . ظاهراً الشعور في حالته الغامضة هي مكان الله المناسب . واكثر
ما يتجلى الله في الحيوان والطفل وفي الرجل من غمار الناس وفي.
الرجل العبقري الذي هو ايضا حسب نوعه طفل واحد الناس ايضا ، وأن
الله هو عقل من لعقل له ، وهو المحرك الخفي الذي يوجد الاشياء
ويكونها تبعاً لنواميس الجمال والاتزان وهو العدد والوزن والقياس
الذي يحمل الدنيا متزنة أبدية

وأشد ما يزيدني ايماناً بهذا الرأي هو طائفة الحقائق التي.
نقف فيها على خداع الطبيعة للأفراد وتغريها بهم لغاية أسمى

منهم، ولنتأمل مثلاً كل ما يتصل بمسألة التناسل، وكيف جعلتنا الطبيعة نشعر كل الشعور بالاهمية التي تعلقها على الاحتفاظ بآداب الفرد، فهي تحف هذا الكنز — هذا النبع لكل حياة — بضروب لا تحصى من الاحتياطات وهي لم تكثف بأن تقعد به اللذة فحسب بل قد وكلت به الوائناً من الفرائز وصنوفاً من العواطف المتناقضة كالحياء والاحتجاز والشهوانية والاستخزاء والرغبة، وذلك مثل امراس السفينة للشد والتوثيق والصد والمنع والاغراء. وهي تنزل أقسى العقوبات وأشدّها نكراً بمن أسرف وسدر، والطبيعة نفسها تشترط أن تكون المرأة عفيفة صائنة وألا يكون الرجل عفيفاً الى مدى بعيد. ومن ثم فإن طائفة من الاحكام المقررة تنهال على المرأة التي لا تصون عرضها في حين أن الرجل غير العفيف لا يلحقه سوى رشاش من السخرية والاستهزاء. وعواطف مثل هذه عندما تكون متوشجة الاعراق شديدة التأني تكون جزءاً من الطبيعة نفسها. والطبيعة في تديراتها ترمى الى غاية اخلاقية أكثر مما تنظر الى اشباع أنانية الفرد.

والرغبة هي المحرك الذي اتاحته العناية لتعمل. وكل رغبة تنطوى على وهم. ولكن النظام الذي تجرى عليه الامور لا يشعرونا بفراغ الرغبة الا بعد ارتوائها. «وبوتوس» هو اقدم الآلهة ميلادا وسيظل كذلك. ومادة التلقيح في النبات تجاهد بلباقة في الولوج

الى البويضة حتى لكأنها تعلم قوانين الفراغ . وكل مطلب من مطالب الرغبة تنكشف لنا تفاهته عند ادراكه . ولم يشدعن هذه التجربة شيء منذ اول العالم . ولكن برغم ذلك فان هذا لا يثنى هؤلاء الذين يعرفون هذا حق المعرفة عن الجرى وراء الرغبة . وسيظل الاكليروس يبشرون بفلسفة الاعزب الذى لا تحده الاوهام وسيظل الناس يعترفون بصدق هذه الفلسفة . ولكنهم سيظلون مع ذلك يعدون وراء الرغبات فالى تناقض !

ان الطبيعة تريد تكاثر النوع وتلجأ الى آلاف الحيل لبلوغ هذا الغرض . والجم من اعمال الكائنات ليس نتيجة التقدير الذى يعود بالفائدة الذاتية . ولقد اركزت الطبيعة فى الحيوانات الدنية من عطف الامومة ما يكفى لحفظ نوعها . وقد منحت الانسان نصيبا من النزاهة يسمح له بالانتقال الى حياة اسى . وان الفراشة القصيرة العمر تعيش ثلاث سنوات فى دور ما بين النقف والتقرش وتنتهي حياتها فى اليوم الذى ينبت فيه جناحها . وهى فى خلال هذه الفترة القصيرة تتناسل وتبيض وتموت . وليس ثمت من غريزة بدون غرض . وعندما نرى فى الطبيعة البشرية آلاف الحقائق التى لا تفسرها الالدة ولا المصلحة تفسيراً كافياً يمكننا ان نستخلص فى غير تردد انها ادوات آلة اعدتها الطبيعة ولو ان غرض هذه الآلة من الصعب اكتناؤه . والانسان يشبه العامل فى جوبلنز الذى

ينسج بطانة الوشى التى لا يعرف طريقتها ولا يرى غايتها. وانما هو يعمل لقاء فرنكات قليلة يتقاضاها فى اليوم . ونحن نعمل لاقل من ذلك . نعمل بوم العمل الصالح فى حيوان شريف الانسان ؟ وكيف يحسن حمل نيره ! وما اصدق وأعمق صورة الجحش فى بلاتين «
« اعمل ايها الجحش كما كدحتُ فانه سينفعك »

ومن الواضح اننا مسخرون لخدمة غرض من الاغراض وأن الطبيعة تستخدمنا وهنالك شئ يتم على حساب ما نبذله من مجهود . واننا الاعيب انانية اسمى تتبع غرضها بطريقنا . وان العالم هو هذا الانانى العظيم الذى يجذبنا الى الشرك بأفطمع أنواع الخداع . مرة بالذة التى يطالبنا بعد ذلك بان ندفعها مقدار معاد لا من الالم . ومرة بجنة وهمية لا نرى فيها ظلا من الحق حالما نستقر فيها . وتارة بوم الفضيلة الذى يحملنا على تضحية اوضح مصالحنا لغرض خارج عنا وبعيد عن دأرتنا . والطعم ظاهر ولكننا سنتناوله وسنعمل ذلك على الدوام
اتيفرون

ليس هذا عجيبا الى الحد الذى تنصوره، ولا يمكن وجود الدنيا الا على الفرار الذى وصفته ، ولو كانت الانسانية من الذكاء والفطنة بحيث يستطيع افرادها ان يستبينوا كل شئ لكان من المستحيل بقاءها، بل كانت تموت فى جرثومتها ومن ثم لا توجد، وانك فى ذلك كأنك تتعجب من عدم وجود فقرى بدون قلب

فيلاليت

ولكن أشد ما يثير دهشتي هو وجود كائن يقتضى تركيبه ان يعيش لغرض خارج عن نفسه وان يضحي في بعض الاحيان شخصه في سبيل هذا الغرض، فوجود هذا الكائن هو مناط دهشتي وموضع تعجبي، وان فضيلة الانسان لا قوى دليل على وجود الله، والكون في تصرفه بالانسان يتراءى لنا كطاغية محتال ينزلنا على ارادته باساليب مكياقلية ويدير الامور بحيث لا يفطن الى تلبيساته الا القليلون، لانها لو وقف عليها كل انسان لاستحال وجود الدنيا والطبيعة محروس على فضيلة الفرد، واذا نظرنا من ناحية المصلحة الشخصية وجدنا ان هذا وهم لان الفرد لا يستمد نفعا من فضيلته، ولكن الطبيعة مفتقرة الى فضيلة الفرد، وقد احتالت لذلك بقانون الواجب أعظم الهام واصدقه بل الالهام الفذ، وان آكد فضيلة لهي الفضيلة القائمة على الشك النظري، وليس ثمة في الحياة العملية من إنسان يخاطر بمائة فرنك رجاء ان يكتسب مليوناً باحتمال حياة مقبلة، ولكن مع ذلك فان كل إنسان يستسلم للموت او يعدل سلوكه تبعاً لمثل هذا الاحتمال، والاصل في ذلك ان هناك ناحية في العقل الانساني لا تقتصر على الوجه النظري مثل سائر نواحيه بل تأخذ بمخاطقنا وترغمنا، وان الطبيعة لتتعمد خداعنا لأجل غرض سام يسمي اليه الكون وهذا الغرض خارج عنا

والأ كاذيب المباركة التي تلفقها الطبيعة لدراك غايتها وهي
أدب الفرد تدهشنا لو حاولنا أن نحيط بتفاصيلها . وأن اعتقادات
الدين الطبيعي — وكلها مشتقة من قانون الواجب — لتشبه شبكة
توقعنا في أسرها أو شراب الحب الذي يستغويننا ، ولا يجدى هنا النقد
ولا الفلسفة النافية . وأننا نعتقد بالله ونؤمن به عند ما نكون
في أسعد حالة ، والدين للإنسان كغريزة الأمومة للطيور —
تضحية بغير بصيرة لغاية مجهولة إرادتها الطبيعة . وهذا شيء سخي
في حد ذاته : ولكنه صالح لأن الطبيعة تريده . بل هو أيضا
صادق وأقدس من كل شيء لآجل ذلك . وهناك سياسة مفكرة
متجلية في كل مظاهر الشعور الغامض أو الوجود اللا شعوري .
وأن غرضا عظيما يتم بتفاني الإنسان وتحميضك الإنسان على
الآ يتفاني في هذا الغرض هو مثما تدعو الطير لترك بناء عشه
أو ألا يتعهد صفاره . وفي ذلك مقدار ضئيل من الضرر . والإنسان
والطائر سيستمسكان بأساليبها الأبدية ويحرصان على طرق عملها
لأن الطبيعة تتطلب هذا التشبث . وهناك عناية حكيمة قد احتاطت
لتضمن هذا المقدار من الفضيلة اللازم لحفظ العالم

ايدوكس

لو كان هناك رجال في هذه الدنيا يأخذون بشاغلهم ماتعطيهم
لهم باليمين مثما يقول القدماء لأربكتهم إراؤك ، ومن ناحية أخرى

فان الماديين سيهتمونك بأنك تبحث عن التجرد من المصلحة حيث لا يوجد ، والرغبة الأنانية في نظرهم كافية في تفسير كل الحقائق التي ترى أنت فيها خطة جيرويتية في الطبيعة لأخضاعنا لأرادتها
فيلاليت

السبب في ذلك هو أن العلماء الذين يتقلدون اسم الماديين بنير حق في الإغلب لم يحلوا طبيعة غرائزنا الاخلاقية والافسافية والفنية تحليلا كافيا ، واذا فكر الانسان جيدا رأى أنه في أكثر الامور له صالح مباشر في ألا يكون ذا فضيلة . ولكنه مع ذلك مستمسك بالفضيلة في أغلب أوقاته . ولو كان الحق والخير والجمال أشياء لاقيمة لها لتركها الناس من زمن بعيد لانها غير مثمرة . وأن النبوغ الصادق والفضيلة الحقّة والعلم الصحيح تضر بمصالحنا ولا تعيننا على النجاح بل هي تعوق النجاح . وفي بعض الاوقات تجر عليه البلايا . ولو لم يكن في الصادق قيمة مجردة لقضى التطلع البشرى الى المعرفة نجبه من زمن ولو لم يكن الصالح مطلب ارادة أكبر من ارادتنا لعامتنا آلاف التجارب أن لانعربه ونخدع ، والرجل الفاضل والعالم والفنان العظيم هم أسطع البراهين على وجود الله . ولكن أبسط الحقائق النفسية اذا احسنا استخبارها أدت الى نفس النتيجة . ومن الاوهام التي تتطلبها مصلحة الانسانية ومصلحة الامة فان مسألة روح

العائلة لها المكان الاول والفضائل العائلية لازمة لبقاء المجتمع سليماً .
وقد احتاطت الطبيعة لذلك بعيوب غريبة في المنطق . تخدع أشد
الناس تهديبا وأكثرهم انهماكا لحسن الحظ . والاكتفاء بالزوجة
الواحدة لادليل عليه في بنية الانسان . ولكنه لازم وجوهري
لتكوين الشعوب العظيمة وحفظها . وقد اكتسب من الاراء قوة
قانون شبيه بالطبيعي . وعدد كثير من أفضل المواضع لا يعيشون
الا ليتعهدوا أولادهم ويربواهم . ولا يكون لأولادهم هؤلاء شغل اذا
بلغوا حد الرجولة سوى تعهد أولادهم أيضا . والقياس الفاسد واضح
ولكنه لا يعوق انسانا لان الطبيعة مفتقرة الى هذا الاهتمام الزينه
وهي تحفظ لنفسها فرصة أنه قد يبرز من أكنان هذا الغموض
رجل من الطراز الاول يتصرف برأس المال الذي جمعه له نشاط أجداده
ويستثمره في وقت قصير أحسن استثمار لصالح الفن والعلم والسياسة
ويمكن أن نلاحظ ما كفايلية الطبيعة الغريزة علاوة على ذلك
في الخداع العظيم الذي ينطوى عليه الصلاح . وان صلاح طبيعة
الكلب لا يفتر ولو أنه يسبب له الخيبة وسوء المعاملة . ومعاملة
الانسان المهينة لا تسيؤه لانه يحب الانسان . وهو يشعر بتفوق في
ذاك . وهو يزهو ويفخر بأنه يشارك في حياة دنيا أسمى ، ولو كان
الواجب نتيجة تفكير أناني أو فلسفي لنبتذله الكلب من زمن لان
الانسان يقسو عليه في بعض الاوقات ويحصد عطفه وهذا أيضاً

يصدق عن أدب هؤلاء الذين تصطفيهم الطبيعة ليقوموا بدور
تضحية النفس . وسيوجد على الدوام ضحايا راغبة في تلبية مطالب
الكون . والشعوب التي امتازت بالصلاح مثل الملاح البريطاني
والفلاح الليثوني دريئة للاحتقار والمهانة من الشعوب الاقوى .
والذي يطيع هو على الدوام في الغالب خير من الذي يأمر والفرد
الذي أوقف حياته على الصلاح والخير محتوم عليه ان يكون موضع
احتقار ولكنه مع ذلك سيطر يلعب دوره لانه لازم لغرض
الطبيعة . ويمكن أيضا أن نقول كثيرا عن الاستقامة ولو أن البرهنة
في هذه الحال تكون أقل قوة لان هنالك عقوبة تنزل بمن ينحرف
عن جادتها في حين أنه ليس تمت من عقوبة تحقيق بمن انشق على
الصلاح . والحقيقة أن الجميع متشابهون في وقوعهم في أحاييل
الطائر المحكمة . ومحاولة محو عاطفة الورع من هذه الدنيا والعودة
بكل شيء الى الانانية المحضة محاولة مستحيلة كمحاولة انتزاع أعضاء
الامومة من المرأة، والانانى المزهو بنفسه لانه اقام مذهبه في ضوء
المصلحة الذاتية هو نفسه من مفاتيح الطبيعة ، والانانى يكذب
مذهبه آلاف المرات في اليوم ، وحياة الانانى نسيج من المتناقضات
ومن الاعمال التي اذا نظرنا اليها من وجهة نظره وجدناها
مسخيفة حقاً

ايدوكس

الحقيقة انى لا اعرف قديسا قد حمل انكار النفس الى الحد
الذى حمله اليه عالم من علماء عصرنا تعدد العقول السطحية
كافراً ومادياً

فيلاليت .

لقد اصبحت مفصل الحق ، ولا يوجد في مذهب من المذاهب
قيمة مجردة للفضيلة مثلما لها في مذهبنا . وطاعة الطبيعة عندنا هي
الاشتراك في العمل الالهى ، ولقد رأى « كانت » بعقريته النادرة
أن هذا هو أس الدين الذى ينشأ من العقل العملى لا من العقل
المفكر ، والله وهو روح الدنيا الموكل بحفظها والقيم على مصيرها
يجب الفضيلة ويقرها لانها تخدم غرضه ، ولانها تضيف حجراً الى
البنيان الرفيع المتسامى الى الابد فالفضيلة مركز سام فى التكوين
العام ، وهى الحاضض والمحرك الاكبر للخطوة الالهية ومن ثم هى
أقوى برهان على وجود هذه الخطوة ، أن الفضيلة موجودة ومن
اللازم أن نفسرها ، ولا يمكن أن يكون هذا الباعث القوى شيئاً
زائداً عن الحاجة والدين فى الانسان كبناء العش للطير ، فانه بغتة
تتولد فى السكافى غرابة وخفاء غريزة لم يشعر بها من قبل ؛ فالطائر
الذى لم يسبق له ان باض ولم ير ذلك بعينه يعرف الوظيفة الطبيعية
التي سيقوم بها ؛ وهو يعمل بسرور واخلاص لغاية لا يفهمها ؛

وكذلك النحل يجمع العسل والنمل يخزن ما يخزن بذرة بعيدة عما يملكه الخزم الانانى

وقد تم. ولد العاطفة الدينية فى الانسان على هذا النمط ، كان الانسان يحول غير مكترث ثم يسود فجأة سكون و كأنما يقف تيار حواسه ثم يرفع صوته « بارب ما أعجب مصيرى ! هل حقيقة أنا موجود ! وما هذه الدنيا ! وهذه الشمس هل هي « انا » وهل تنبث من قاي الاشعة ؟ يا ابتاه انى أراك وراء السحب ! ويعود ثلثية ضوضاء العالم الخارجى ويسدل الستار على الرؤيا ، ولكن ابتداء من هذه اللحظة يشرع الكائن الانانى فى الظاهر فى القيام بأعمال لا تفسر وينجز أشياء تتنافر تنافراً ظاهراً مع مصاحته ويوقف نفسه لغاية لا يفقهها ويشعر بضرورة احناء الرأس والعبادة

آه ما أسى سرور الرجل الصالح ! أنه مساك الدنيا واذا وخزه ضميره عندما يستشعر العزلة ويرى نفسه عاجزاً عن دفع اعتراضات الماديين فليش ويبشر فهو على الحق وهو الرجل الحكيم ، وهو واحد فرد بين مائة الف ، وهو الذى يخلص صود يوم والاقليّة التى يتصل بها هي عماد هذا الكوكب ، ولا توجد الدنيا الا من أجله ومن أجل امثاله

فهنالك اذن نظام أعلى للأشياء قد أحدثت بناشبا كه والطبيعة

تتصرف بنا تصرفها برعيل من المصارعين مقدر عليهم أن تسفك
دمائهم وراء غاية ليست لهم ، وهي تعاملنا معاملة المستبد الشرقي
للمالكه الذين يستعمامهم لغرض خفي دون أن يظهر لهم بنفسه ، ويقوم
بنفوس هؤلاء نوعان من الشعر ، ففي فريق منهم ينشأ شعور الثورة
والكراهة لهذا الطاغية (وهذا هو الموقف الاخلاقي الذي وقف
عنده شوبنهاور) وفي الفريق الآخر ينبعث شعور الاستسلام بل
الشكران والحب لغرض الاشياء الخفي وهذا هو رأى نخته ، وهو
الرأى الذى وفقت الى الاستقرار عليه

اتيفرون

أهنتك على ذلك ، وأنت موافق — على أي حال — ان كلتا
هاتين الوجهتين شرعى الى حد ما ونحن نخدم غرضا قد فرضته
الطبيعة . والطبيعة لا تكشف لنا عنه . ونحن كما ترى ضحايا على غير
ارادتنا . فهل ينبغي لنا ان نكون ضحايا مستسلمة ؟

فيلاليت

نعم يلزم أن نكون كذلك . وشوبنهاور يناقض نفسه تناقضا يجعل
موقفه أقل صحة من موقف نخته . فهو يسلم بان العالم غرضا . وقد
عرف بجلاء ما كيا فلية الطبيعة مثلا في الحب . ولكنه لم يدرك
ان هذا يكفي لتأكيد الاعتقاد بالله ولا ثبات ان للفضيلة معنى .
وكان ينبغي لشوبنهاور ان يستخلص ان للفضيلة السامية هي

الاستسلام أى قبول الحياة كما هى وعلى انها تخدم غرضا اعلى .
ومقدماته تدل على ذلك . واذا كان للطبيعة غرض فلنضع جهودنا
تحت تصرفها . وطاعة الطبيعة واتباع تعاليمها أو على الأقل مسابقة
نزعها هى قانون . واذا كان للحياة قانون فانه يتبع ذلك ان لها معنى .
وشوبنهاور ليس نائرا من طراز ييرون وهنريك هينى فان كليهما
لم يعرف القانون الاخلاقى . بل هو فى ثورته أشد جرأة لانه غير
مستسلم للطبيعة ويدعى حق عرقلة رغباتها ، فهو مذهب أولاء وعديم
الفائدة ثانيا لان الطبيعة ستنفذ طرقها وقد أحسنت تصرف
الامور وأحكمت الشبكة ومهما صنعنا فان الطبيعة ستبلغ غرضها
وهو خديعتنا لاجل مصلحتها ، والمسألة الخطيرة هى ان نعرف ان
كان للطبيعة غرض وهذا ممكن انكاره انكارا وجيها فى ظواهره ،
ولكن شوبنهاور لا ينكر ذلك ؛ ومن ثم فانه من الصعب ان نفهم
لا اخلاقيته ، وأنا ارى بوضوح مع شوبنهاور أن هناك أنانية
عظيمة نخدعنا ولكننى — ولست فى ذلك مثل شوبنهاور —
مستسلم ، فانا اذعن وأخضع لأغراض الكائن الأعلى ومن ثم
ترجع الآداب الى الخضوع والاخلاقية قائمة على الثورة ضد حالة
للأشياء قد فطنا الى ما بها من خداع ويلزم ان ندركها ونخضع لها
فى نفس الوقت

وورة الانسان هي الجريرة الاصلية ، واذا تحرينا الصدق

فإنها هي الجريمة الوحيدة الممكنة ، وقد قيدت الطبيعة الانسان ..
بحيل بارعة مثل الدين والحب وحاسة الخير والحق ، وهي ..
غرائز تخدع الانسان وتسخره لغايات خارجة عنه اذا نظر اليها ..
من الوجهة الشخصية . والانسان يتقدم التفكير يرى اخاديع الطبيعة ..
شيئا فشيئا وبامعانه في النقد يهدم الدين والحب والخير والصدق فهل ..
يمكن على هذا المبدأ او تنغاب الطبيعة ؟ ربما كانت الافلاك التي ..
أدركها البوار هي تلك الافلاك التي تغلب فيها النقد على حيل الطبيعة ..
وفي بعض الاحيان يخيل الى انه لو قبل كل انسان فاسفتنا لاناسقت ..
الدنيا الى نهايتها واتقضى امرها

(ايدوكس)

ليس هذا بالامر الذي يخشى خطره . فان الناس لا تصدقنا في ..
ذلك ياسيدى الفاضل . وستدق النواقيس على الدوام . وسترن ..
تهليلات الطبيعة يد الدهر . وستوجد ابدا ارواح نقية صافية تنغى ..
نشيد الافراح الغامضة . وإنما العزاء الداخلى العظيم السامى هو في ..
التفكير باننا نؤلف جزءاً من كل . وان هذا السكل يتقدم تقديماً مستمراً ..
الى غرضه . وانه مهما اقترفنا من اخطاء فلا خوف من ان القارب الذى ..
نبحر فيه يتعرض للخطر ودعنا لا نخدع في ذلك . وان المدرسة الجديدة ..
تعتبرنا نحن المثاليين خطرين مثل الارثودوكس

(فيلايت)

«المدرسة المادية على حق في ذلك» يعيش فينا العفتشتد حاستنا وهو
يحركنا «لا ترضى هذه الفلسفة القزمية الا الارواح الواهنة، والرجل
العظيم ينبغي له ان يشترك في تأييد الخدعة التي تقوم على اساسها الطبيعة،
وان اشرف عمل العبقرى هو ان يتآمر مع الله وان يحاكي سياسة الابدى
. وان يساعد على بث احاييل الطبيعة الخفية ويناصرها في خديعة
. الافراد للخير العام، وان يكون اداة هذا الوهم العظيم بان يبشر
بالفضيلة للناس وهو عارف تمام المعرفة انهم لا يستمدون منها منفعة
شخصية، مثلما يقود القائد الحربى جنده المساكين الى ساحة الموت
لغاية لا يفهمونها ولا يقدرونها، اننا نعمل لاجل الله مثل النحل الذى
يجمع الشهد للانسان دون ان يعرف ذلك

(أتيفرون)

ولكن الانسان بالنسبة للنحلة فرد اسمى ينبغي لها ان تعرفه في حين
، اننا ليس عندنا شئ اسمى يمكن حصره وتحديد مدخل حدود الشخصية
المحدودة ولو كان لنا كائن اسمى لكان من المحتم ان نعرفه، ولا شئ يحدث
أبدا يماثل لما يحدث عند ما يخلى الانسان خلاية النحل ليبنى الشهد

(فيلايت)

الحقيقة انه لا يوجد داخل المدى الذى تصل اليه وسائل
ملاحظتنا اى شعور (اريد ان اقول اى شعور مفكر محدود) اسمى

من الانسان ، وانما هناك شعور تلقائي مديد منبسط مسيطر على
الانسان ، ومن ثم تقارب فكرتنا الالهيين ، فانساي اغراض الطبيعة ،
ولنكن (ولو ابتالم نخدع) مخدوعين لها ، لنكن مخدوعين بارادتنا
لما كيا فليتها ، ولنتغلغل الى ما ربهنا ونستسلم لها ، وانما الشر هو الثورة
على الطبيعة عندما نراها تخدعنا ، نعم حقيقة هي تخدعنا ، ولكن لنخضع
لها . ان غرضها خير فلندم ما تريده ، وانما الفضيلة هي التزامك قول آمين
الكل الغايات الخفية التي تعمل العناية على تحقيقها بوساطتنا
(اتيرون)

نحن في زعمك نكون جزءا من خطة قائمة على التناقض مقصودا
به ان تصير محسة مدركة . ونكون ايضا جزءا من تلك السخرية التي
تقول عنها بحق ، إنها فلسفية للغاية وانت مستعد للمواقفة على تليسيات
الابدى . ولكنك مصر على ان يعرف انك غير مخدوع به . ولقد طالما
لحت فيك شعورا ممتازا مفرط الرقة وهو ضرب من الخوف من
التظاهر بانك تستمد أية منفعة من فضيلتك . وأنت تمقت المراءاة
اشد المقت . بل قد بلغ بك مقتها الى حد انك بعد ان اكبرت الفضيلة
كل اكبار تشعر بضرورة القول بانك لا تحسب لها حسبا كبيرا وانها
ليست في الحقيقة سوى وهم . وانك لتستطيع تكلف الفجر حتى لا تظهر
بمظهر المرائى في عصر حشود الرياء مثل عصر ناحيث ينتفع الانسان
من كونه مفكرا صالحا

(فيلاليت)

حقيقة لو كنت قسيسا لرفضت باستمرار ان اتقاضى اجرا
للقداس و خلفت ان اسلك سلوك التاجر الذى يسلم غرامة فارغة لقاء
نقود مدفوعة له ، وانا كذلك سأتردد فى اجتناء اية فائدة من وراء
اعتقاداتى الدينية وسأخشى من ان اظهر بانى اوزع و نائق زائفة .
وانى باستغواء الناس بالامال المشكوك فيها اعترض سبيلهم فى الحصول
على نصيبهم المناسب فى هذه الدنيا ، وهذه الاشياء حولها من الحق ما
يتركثرة لفظ الناس بها وان يعيشوا عليها وان لا ينوع التفكير فيها .
ولكنها مع ذلك ليست من التحقيق والثبوت بحيث يضمن الانسان ان
يشعر بانه فى احترافه تعليمها لا يمارس الغش من جهة نوع المقالة التى يلقيها
(ايفرون)

لقد امتد بنا الوقت ، وبرد المساء يوشك ان يظهر اثره سريعا
فى هذه الادغال المتكاثفة ، وفى اعتقادى اننا وينا بحث ما سماه فيلاليت
فى اول المباحثة «المؤكدات» ، ويمكن ان نتلاقى فى الغد ثانية ، وربما اقدم
بعض الاعتراضات لانه ولو انى اسلم بان هناك ارادة عليا تسخرنا
لرغبتها وتم غاية من الغايات بطريق الانسانية فانى لم اتعود اعتبار مثل
هذه الافكار فى مكان الاعتقاد بالله أو الديانة الطبيعية واودان يكون معنا
تيوفر است الذى سمعته مرة يقول أفكار جريئة عن اغراض الكون .
(فيلاليت وايدوكس) استصحب معك ، وسرحب بقدمه ،

المحاضرة الثانية

المظنونات

المحاورۃ الثانية

﴿ المظنونات ﴾

ايدوكس • فيلايت • أتيفرون • تيوفرست

فيلايت

في محادثتنا بالأمس حاولنا ياتيو فرست أن نحدد أفكارنا بالضبط عن هذا النوع من الشعور المدرك الذي يتكشف عنه الكون في كليته ، ولقد كادت آراؤنا أن تستقر على أنه ضرب من الشعور الغامض اللدني يشابه الشعور الذي يهيمن على نماء الجنين أو الحيوان. وهو مع ذلك مكفول الى حد عجيب ، ويحقق أغراضه بطرائق لا يخطئها السداد ، ولقد ذكر لنا اتيفرون ان لك آراء خاصة في هذا الصدد فاطرحها لنا على بساط البحث إذا كنت ترانا جديرين بفهمها

تيوفرست

أعتقد أن هناك حاصلا للدينيا وتزايد في رأس مال خيرات الانسانية والكون يتكون بتكاثر بطيء متوال مصحوب بخسائر فادحة ، ولكن الزيادة مستمرة كما في نشأة المراهق ، ولا يمكن سوى الصالح ولا يمكن أن يقصر البقاء الاعليه ، وليس يدوم على البلى سوى الاعمال التي كان الباعث عليها هو المثل الاعلى ، واما غير ذلك فهو

فان زائل ، ولما كانت الاثرات المتنافسة ياغى بعضها البعض .لذا
فان العمل النزيه وحده هو الذى يترك الاثر الطيب ، والمجهود الباقي
جد ضئيل الى جانب المجهود الضائع ، ولكنه وحده له الدوام .
وماخلاه زائل ، ومن ثم ، يتكون رأس المال من تجمع العمل النافع
ونصيب كل منا من الخلود بقدر الجزء الطفيف الذى يضيفه الى .
مستودع الترقى البشرى السرمدي ، والدليل على أن هناك ميزاناً
للأرباح والخسائر هو تقدم العالم الى الأمام ، فانه لولا تزايد الخير
فى الدنيا لعقبت عن الدوران ولظلت فى تناسق خامل أو أفتت .
جهدهما فى محاولات عقيمة كالقاطرة المنزقة فوق قضبانها ، وأن
القطار بخذافيه محمول الى ناحية من العسير معرفتها ولكنه يسير
الى الامام ويتقدم بلا انقطاع الى الابدية ويحمانا معه
ولاجل أن نفهم هذا ينبغي لنا أن نرجع الى تصور نشأة
الحركة فى العالم . فقد كان بدء الحركة فى العالم ، ومن ثم بدأ التطور
العام ، اضطراباً فى التوازن ، ونفس هذا الاضطراب فى التوازن
نشأ من فقدان التجانس . لان العالم لو كان متجانساً لبطلت .
حركته وظل طوال الأباد خاملاً لا ينمو ولا يتق . فلما اذا اذن
لم يحتفظ الكون بالسكون ولما اذا أثر المسير ومعاناة الاخطار عوضاً عن .
أن يستلقى راقداً فى احضان الرتب المطلق ؟ لقد حثه مهمازودفعه .
قلق مستدر الى الحركة والاختلاج . وأزجى خفاء غامض السحب .

تفتنشت الهدوء المتجهم في سمائه الزرقاء . والذي يجلب الحياة هو
على الدوام انبعاث فجائي من الجمود بل هو رغبة وحركة لا يعرف
أحد مصدرها وهي شئ^{*} يقول « الى الامام » فلماذا يجاهد الجنين
ليترك رحم أمه ؟ ولماذا يألم الطفل عندما يشعر ؟ ولماذا لا يعنى من
يمن هذا كله ؟ ولكنه لا يعنى من هذا كما لا يعنى الشاب الذى
ينقاد مع عاطفة الحب التى ربما تملأ حياته مرارة وتقضى عليه
فى النهاية

وكذلك اصل الحضارة اختلال فى التوازن . والحياة والحركة
هما مثل فترة الصوت بين السكونين . وهي فترة لا يكتسب فيها
شئ^{*} ولا يفقد شئ^{*} . والعالم والمجتمع يتزعان الى التناسق والتوازن
بضرب من قانون القصور الذاتى ولكن فى هذا التوازن فناؤهما
وبدأ التاريخ — او ماهو فى معنى ذلك — الانتقال من الحيوانية
الى الانسانية كان جريمة اذ هو انتقال فجائى من حالة النعيم الخالى
من الفردية الى حالة الحرب والحب والكراهة

وما الذى أحدث الثورة الاصلية ؟ لقد تساءلت المدرسة
« الايقورية — وهي المدرسة العلمية القديمة — كما نفعل نحن الآن
« ماهو القصد من نوازن الاشياء المتعادية وماهي قوة » ولاى
غرض قص التوازن الاصلى فى الاشياء ؟ وأى باعث — سواء
تكان داخلنا أم خارجيا — استطاع أن يحركها ؟ لقد كان هذا

الباعث هو التشوف الى الوجود والظماً الى معرفة نفسها والاحساس بنفسها . والضرورة في تمثيل المثل الاعلى . ومن ثم يظهر ان المثل الاعلى هو مبدأ تطور الله ونشوءه . وانه هو الخالق بطبيعته وأنه غاية الوجود والمحرك الاول له . والفكرة النقية الخالصة ليست الا قوة والمادة الخالصة جامدة . والفكرة لا تتحقق الا بالتركيب المادية . والمادة هي مصدر كل شئ . ولكن الفكرة هي التي تحي كل شئ والتي تدفعه الى الوجود رغبة في تحقيقها ، وهذا هو الله ، فلا بناء بلا أحجار ولا موسيقى بلا أوتار ولا فكرة بلا مادة عصبية . ولكن الاحجار ليست هي البناء والكنجيات ليست هي الموسيقى والذهن ليس هو الفكر . وانما هذه هي الحالات التي بدونها لا يكون البناء ولا الموسيقى ولا الفكر . وان لنا من ألحان يتهوفن على الورق يعد موجودا بالقوة . والاهتزاز هو الذي يجعله موجودا بالفعل . وهذا الاهتزاز حقيقة عضوية قابلة للوزن والقياس ؛ والفكرة قوة تريد أن تكون والمادة تسميها وتنقلها الى الكينونة والواقع ، ومن ثم فإن قطبي الدنيا هما المثالي والمادى ؛ ولا يوجد شئ بدون مادة ولكن المادة هي حالة الوجود لاسببه . وانما علة الاشياء ومصدرها هي الفكرة « العقل يحرك الاشياء كلها » ، والفكرة هي الموجودة في الواقع وهي وحدها الكائنة ؛ وهي تطمح الى الوجود التام بايجاد التركيب الكيميائية المناسبة لظهارها

وقد انتهينا الى نسبة الوجود الكامل للفكرة ليس غير «
أو للفكرة الشاعرة بنفسها أى الى الروح . حقيقة ان للذرة وجودا
ولها هذه البزة الفذة العظيمة وهى أنها غير قابلة للبل . واذا كان
لزاما علينا ان نصر على ما نعلمه فهى ابدية لا لأن الذرات لا تتحلل
ولا تتركب فحسب بل لانه لا يوجد شئ فى حدود التجربة يعطينا أقل
فكرة عن الكيفية التى يمكن أن تتكون بها الذرة . والكائن المركب
يعتريه المرض ويدركه الموت . أما الذرة فلا يعرض لها المرض ابدًا وهى
على الدوام سليمة وفرة الكربون التى يتكون منها تراب المجرة هى
نفسها التى تطعم نيراننا . ولكنها بلا شك مجردة من الشعور . والروح
على خلاف ذلك اذ لها بدءا ولها انتهاء وهى تنشأ من تآلف الذرات والروح
ولو أنها زائلة تفضل المادة وتفوقها وتنسبنا اياها

(ايدوكس)

انك تقلب الافكار الذائعة بشكل غريب ، وقديما كانوا يتصورون
التدبير الالهي تصورهم لآعمال رجل من العباقرة او صانع آلات على
الشأن يهيء الوسائل لدراك الغاية ، وأنت الآن تتصوره دافعا
تلقائيا للحياة واحساسا غامضيا يتطلع فى الكائن الذى يعمل على الاحتفاظ
بذاته وأبلاغها الكمال

(تيوفرانت)

قديما كانت الناس تتصور هو مر يكتب فى غرفة مطالعته مثل احد

الكتاب، أما الآن فإن اشعار هو مر تعتبر من عمل العبقرية اليونانية،
وهي لذلك، تبدو لنا اجل الف مرة وقديما كان الدين هو الخضوع لكائن
اسمى اما الآن فإن الدين معناه عبادة الفكرة في نقائها وكما اجاد في تعريفه
ستراوس « هو ذلك العمل العقلى الذى يجمع اشعة المثل الاعلى الى
نقطة واحدة بعد انعكاسها في المظاهر المتعددة »

اتيفرون

ولكن ما رأيك فى الغرض الذى تصمد اليه الطبيعة وتحتال
لبلوغه بكل هذه الطرق المحكمة

تيوفراست

الكلمة التى تعبر أحسن تعبير عن هذا الغرض هى كلمة
« الشعور التنبهي » والدنيا تنزع الى نصيب أكثر فأكثر من
الكينونة. والكينونة فى أكمل مراتبها هى « الشعور التنبهي »
وكل مجهود الدنيا متجه الى أن تعرف نفسها وأن تحب نفسها وترى
نفسها وتعجب بنفسها وغرض الدنيا هو أن تحصل العقل . وكل
شئ يعين على الوصول الى ذلك . وكل كوكب مشغول بصنع
الفكر والشعور الادبى والاحساس بالجمال . والمقدار القليل من
الفضيلة والعقل الذى تنتجه الدنيا باجمعها هو غايتها النهائية كما أن
عصارة الصمغ هى الغاية الاخيرة لشجرة الصمغ . والفكر هو الحاصل
النهائى . وجاليليو وديكارت ونيوتن كانوا فى ازمنتهم الحاصل الاخير

للدنيا لان أرقى نظر للدنيا كان مستقرا فيهم والكائن في ذاته وهو
هاوية من الظلام لايقنع بالبقاء في عزلته. وقد وجد في الحيوان
وقد وصل الحيوان الى تأمل غامض للطبيعة. وفي ساعات الحب
يستطيع أن يرى لمحات من عالم الفن والجمال. والكلب يكاد أن
يصل الى الفضيلة. وتناغي الطيور المفردة تسديحات بديعة ترمي بها
هذه الكائنات الصغيرة الى شيء أكثر من السرور بتدريب
خارجها. ولكن كل هذا من الضئولة بحيث لا يستحق الذكر
والحياة تتمركز في الانسان أكثر من ذاك بكثير. والانه كاس
الحقيقي لاشعة الوجود دائما يبدأ بالعلوم والفضيلة السامية والفن الراقى.
والانسانية هي اسمي تعبير معروف لحياة الطبيعة. والذهن
البشرى هو أ كمل آلة موجودة للاحساس بالكون - أو على الأقل
في هذه الاجزاء من المكان التي يمكن ان يصل اليها بحثنا

ولا مجال للشك في أنه يوجد آلات تفكير اسمى لانعرفها.
ولكن لنا الحق في أن نؤكد أنه لم يصل بعد كائن مفكر خارج
كوكبنا الى العلم بكل شيء والقدرة على كل شيء. اذ لا يوجد دليل
على أنه قد وجد كائن مفكر استطاع أن يبسط نفوذه من
كوكب الى آخر. ولو كان وجد كائنات في أي مكان وعرفت
قوانين المدد والقوة معرفة كافية بحيث استطاعت أن
تعمل على مدى ملايين من الفراسخ لكننا عرفنا شيئا عنها

بحوادث خاصة لاتقبل التفسير المؤلف ويبدو عليها طابع القصد والتعمد

(اتيفرون)

سأتحاشي الكلام عن العوالم الاخرى ولا نزاع في أن عدد الاجرام السماوية التي يمكن الحياة أن تنمو بها في وقت معين قليل قلة غير محدودة بالنسبة الى الاجرام الموجودة . والارض في الحالة الراهنة ربما تكون هي الكوكب الوحيد المعمور وسط المكان غير المحدود فلنقصر كلامنا عليها . وأن غاية كالتى نتحدث عنها لمن وراء طاقتها ويجب أن تترك كلمات « القادر على كل شئ » و « العالم بكل شئ » للفاسفة المدرسية . ولقد كان للانسانية بداية وسيكون لها نهاية وكوكب مثل كوكبنا ليس له في تاريخه سوى عصر واحد تكون حرارته مناسبة للسكنى . وسينتهي هذا العصر بمرور مئات قليلة من آلاف السنين . ولا سبيل للشك في أن الارض ستصبح مثل القمر كوكباً أنضاه البلى قد اوفى على غايته واستنفد رأس ماله — أى فحمه ومعادنه وسائر قواته الحية وشعوبه . والحقيقة أن مصير الارض ليس غير محدود كما تتوهم بل هي مثل سائر الاجرام السابحة في الفضاء ستستمد من جوفها كل ما يمكن أخذه ولكنها محتوم عليها الموت كما قال حكيم تيمان في سفر أيوب « قبل أن تصل الى الحكمة » .

تيو فراست

لا نزاع في أن كل تطور محصور بسبب ضيق الوسط الذي يستثمر موارده، ولكن كلما ترامت حدود الوسط قل انحصار التطور. وليس نماء العقل مقصورا على الانسان وموارد هذا الكوكب الارضى الضئيلة. وسيمتد تقدم الروح امتداداً لا تناس أبعاده اذا نشأت علاقات بين الكائنات المفكرة في الكواكب المتعددة وبخاصة اذا تأكدت الروابط بين سكان العوالم النجمية المختلفة. وقد يحىء يوم يتحد فيه العالم ويكون جمعية واحدة لها عاصمة واحدة. وستكون حينذاك موارد الروح لا تقادها. وبقرا كم المبالغ بطريقة لانهائية ستمكن الانسانية من اقتحام عالم المثل الاعلى

(انيفرون)

ولكنك تقف هنا موقفا بعيدا عن المشاهدة نايابغن التصور. وما هو القانون الذي تسير عليه كل ضروب النماء في الحياة؟ ابتداء مهيمن وتقدم بطيء يعقبه تقدم سريع وكما نسي يتلوها اضمحلال بطيء ثم انحلال سريع يعقبه الموت. وكل شيء يجعلنا نعتقد ان الحضارة بعد ان تبلغ اسمي مراتبها تنحدر في مهاوى الانحطاط، لان قوى الانسانية الادبية والعقلية محدودة، ونعم الانسانية يشبه نمو الفرد الذي له طفولته وشبابه ونضوجه ثم الشيخوخة وحتى الآن لم نر أثر هذا القانون الا في

نمو الافراد والامم والاسر، ولقد فجرت الانسانية موارد لتجديد الشباب ورد نضارته على الجماعات التي علاها الكبر، ولكن هذه الموارد ربما تنضب يوما ما

وقد تعترض على بان هناك شعوبا على الفطرة بيننا ولكنها شعوب قديمة قداً وهي الزمن منها اكثر مما اوهاه منا، ويوجد بين الالمان وبخاصة بين السلافيين طبقات كثيفة من الاهالي لم تصل بعد الى الضوء ويملاها الامل في المستقبل، ولكننا اذا تجاوزنا هؤلاء لا نرى سوى سقوط شعبي ستتغلب فيه العناصر السافلة بضخامة عددها وتبيد بانتظام كل الذين تظهر فيهم ثاينة الشعوب النيلية القديمة تبعاً لقانون الرجعي، وانحطاط البشرية انحطاطاً لا دواء له ممكن ومحتمل، وان نقص الافكار السليمة وقلتها في مسألة عدم مساواة الشعوب قد ينجم عنه الانحطاط العام. والخطر الذي يهدد الكوكب هو ان الانانية باستغلالها اكبر نصيب من جهد الافراد وبانحصار عبادة الحق والخير والجمال في عدد قليل من النبلاء — اقول ان الخطر هو ان الكوكب قد يرجع القهقري الى حالة يكون فيها من المستحيل وجود فكرة واحدة نزيهة لان كل الافراد قد صاروا يشعرون بحقوقهم، وعدم تساوي الطبقات وهي ظلم سائد في صميم ذات الشعب هي سر تقدم البشرية، وهي السوط الذي يستحث الدنيا على التقدم اذ ينصب للمجتمع غاية يقصدها، تصور ماذا تصير اليه حالة الدنيا لو سكنها الزوج

وخدم وقصروا كل شيء على شهواتهم الفردية وسط العامية الغامرة
واقاموا التحاسد وطلب المتعة والرغد المادى مقام البحث الشريف عن
المثل الاعلى الوسادت بيننا مثل هذه الروح لكان هذا هو نهاية الحضارة
وخاتمة كل مجهود وراء العقل، ومثل هذا الخاتمة هو اخوف ما نخافه الا
اذا وجدت وسائل تجعل مقاصد العبقرى تنصرف على افكار الماديين
الحقيرة هؤلاء الماديين الذين لا يعنيه الا اشباع شهواتهم المتسفلة
وفضلا عن ذلك فانه قد ينشأ خطر شديد من توافر العلم توافرا
غير محدود فى ميدان العقل البشرى المحصور، اذ يخشى ان ينوء الذهن
البشرى تحت عبئه وان يكون نفس ترقيه علة انحطاطه، ويمكن ان
تنبأ بعصر انحطاط مثل المصور الوسطى الا انه لا يعقبه عصر احياء
العلوم ولا يستطيع فيه انسان ان يفهم اية فلسفة مهما كان نصيبها من
السمو ويكون فيه كتاب لا بلاس عن النظام الفلكى كتابا غير مفهوم
قد قضى عليه بالضياح اذا لم تكن ثمة نسخ منه محفوظة فى الرقاق
بعد ان اعترى البلى ورق احسن طبعاته

(ثيو فراست)

هذا محتمل كل الاحتمال ولكنه لا يمس موضوعنا. ولسنا نقول
بأن الانسان سيصل الى العقل المطلق. وإنما نجزم بأنه سيصل الى شيء
يشبه الانسانية. ولقد جربت حتى الآن آلاف المحاولات وستجرب
آلاف اخرى بعدها. وسيكفي نجاح واحدة منها. وقوى الارض كلها

رأيت بحق محدودة، ومن الواضح انه اذا لم تؤد نظرية الحرارة الآلية في خلال خمسمائة او ستمائة سنة الى اكتشاف وسائل لسد نقص الفحم فان الانسانية ستترن عليها العامية ويكون من الصعب ان تميظ عنها وخامتها وتقبل عثارها ، ولكن هل نظرية الحرارة ستصل الى هذه الدرجة من الكمال؟ هذه مسألة فيها نظر، وقد يعترض تقدم الروح البشرية عوامل رد فعل معادية تجعلها عاجزة عن التفكير في أشياء اسمى من الواقع ، وفي الوقت الحاضر لا يوجد اكثر من خمسين شخصا في قدرتهم مسامرة تقدم علوم خاصة والسير بها الى الأمام ؛ ومثل هذه الثقافة المحصورة في عدد جد قليل من الاذهان يمكن القضاء عليها بسهولة ، ويكفي لذلك مجلس تفتيش معتدل في شدته كالذى رأته إيطاليا في القرن السادس عشر أو إجراءات كالتي اتخذها لويز الرابع عشر ضد الهيجونوت ، وهبوط الحرارة الفكرية درجة أو درجتين يكفي لأبادة هذه المخلوقات الدقيقة التي لا تنموسوي في أحوال ضيقة المضطرب مثل النباتات المحفوظة في المقاصير الزجاجية وهكذا قد تهلك الانسانية على قيد غلوة من الجسر الذى ينجبها ومصير الدنيا قد يتوقف على رجل فرد أو عدد قليل من الرجال الذين ربما يستطيعون التغلب على الصعوبة التي اعجزت الانسانية برمتها ، ومن الجائز انه كان هناك دنى — كما سيكون — مات في الشقاء بها رجال كان في ذرعهم ان يخلصوا الكون وينقذوه ولم يجدوا

الظروف الملائمة لتطورهم ؛ وانه كان هناك عوالم أخرى سحق فيها
جرثومة الحضارة رجال هدامون من طراز فيليب الثانى قد نجحوا
فى اقامة الحوائل فى سبيل تقدم الروح

وقد يعترض تقدم الانسانية أحوال كثيرة ، وفقدان
الاتصال بين الدنى المختلفة فان المحاولات غير الموفقة تترك كل شىء
حيث هو لأن المحاولة التى لم تثمر يعطى عليها النسيان فلا تصلح
لتسكون نقطة ابتداء بعد ذلك ؛ وقد أمدت الحضارة القديمة بعد
سقوطها الحضارة الحديثة بطريق الآثار المكتوبة والمرسومة
التى خلفتها تلك الآثار التى درست أحسن دراسة فى عصر أحياء
العلوم ، ولو كانت مثل هذه المحاولات والمجهودات للرقى قد تمت
فى كوكب مثل المريخ أو الزهرة لكانت بالنسبة لنا كأنها لم
توجد قط

فهل يمكن أن يكون مصير الارض على هذه الصورة ؟ هذا
ما نخافه ولكنه غير محقق والأرض على ما بها من نقص لها مزية
التغيير الدائم ، ولن تصل الانسانية يوما الى التوازن الذى هو خاتمة
الرقى مثل النمل والنحل الذى وصل الى حالة الدعة والراحة .

على أن هذا أمر ضئيل الاهمية ؛ وقد تفشل الارض
فى أداء رسالتها أو تستنفد أسباب وجودها قبل أن تنجز
عملها كما حدث بألاف الملايين من الاجرام السماوية ويكفى

ان تم واحدة من كل هذه الاجرام عملها وتبلغ غايتها . ولا يعزب عن بالنا أن التجربة في هذا الكون انما تجرب في عدد لانها في من الدنى . وواحدة من بين هذا العدد العديد ستبلغ العلم الكامل ولنذكر ان النجاح مرة واحدة يكفى . والكون أشبه باوراق النسيب تسحب كل أوراقه . وعندما تظهر الورقة الرابعة لا يكون هذا من قذفات الصدفة وانما هو من الحتم والضرورة وهناك وسيلتان لادراك الغرض . وهما أن نضوب نحوه باحكام أو ان نطلق طلقات عدة فتصيب واحدة منها الهدف المنشود . والقنبلة الواحدة المصوبة تصوبيا محكما تعادل عشرة آلاف قنبلة لم يحكم تصويبها . وتأمل الخسائر في مادة تلقيح الازهار فانه لا يكاد يلج الى الصمامة سوى جزء من مليون منها . وبيض سمك الحوت مثال للتبذير اوسع حدودا والطبيعة تتصرف تصرف عامل لا يبالي بمواد عمله ويبذر ها تبذيرا ذريعا . ولا يهم الطبيعة فتيلة ان تفقد كل هذا المقدار من قوتها فاتها زارع يبذر حبوبه جزافادون أن يلقى باله للحبوب التي تقع على الحجر . وواحدة من مئات آلاف الحبوب تثمر . وهذه كافية . ولنفرض ان جرائم الحياة متنقلة في الفضاء تبحث على غير هدى عن الثقب الذى يمكن أن تثمر فيه . ففي مثل هذه الحالة تكون الفرصة المتاحة لهذه الجرثومة أولئك . فرصة نادرة بعيدة ولكن اذا كان عدد هذه الجرائم غير متناه

فانه لا بد من ولوج واحدة في هذا الثقب . أو لنفرض وجود قبة من البلور ممتدة على مدى الف مليون فرسخ بها ثقب قطره لا يتجاوز جزء اعلى اثني عشر من القيراط وحولها حشرة عمياء تضرب بجناحيها الى الابد باحثه عن الثقب لتلاج منه فان هذه الحشرة ستنتجح اذا اعطي لها متسع من الزمن غير محدود وفرصة تعوض عليها عدم موأاة الصدف والطبيعة لا تبذل مجهودا لاجتناب اشتباك الطرق وضيق المسالك . والحوت الصغير المحفوظ في الحوض ينمو أكبر فأكبر حتى يستنفد كل ما يمكن استنفاده من أسباب حياته والشجيرات تنمو في تجاويف الصخور كما تنمو في الارض البراح ، وكل شيء يستطيع أن ينبت فانه ينبت دون ان يحسب حسابا لاي اعتبار آخر ؛ واذكر اني شاهدت سليلحات في قاع وادي الحول في سوريا ، وكنت أعلم أن الوادي ستفيض مياهه ولذا كنت أدرك أنها استموت خلال يومين ولكنها لم تكن تفكر في شيء من هذا القبيل . كانت مسرورة مرحة كدأها

والطبيعة كلها تم على احتقار للفرد . وبهاء عاصمة من العواصم انما يقوم على اتقاض من الحياة الريفية حيث يعيش الملايين عيشة غامضة الشأن ليعملوا على إيجاد بعض الفراش المتألق الذي يجيء ليحترق في الضوء . وأنه لا بد من تصفية ثلاثين أو أربعين مليوناً من شعوبنا الحديثة الكثيفة الجمالجم للحصول على شاعر كبير أو

أو عبقرى من الطراز الاول ويندر ظهور العظيم فى مجتمع مكون من خمسة ملايين أو ستة ملايين لان الانتخاب يجرى فى دائرة محصورة . وإنما ينبغ العظيم فى شطر من الانسانية قد تقى كل تنقية وصفى أحسن تصفية . والكوكب الصغير يخلو من العبقرية ولا يوجد فى الكيلو متر المكعب من ماء البحر سوى كمية قليلة من الفضة ذات قيمة . وفى المتر المكعب الواحد لاقيمة لها على الاطلاق

والكون مثل الآلة القوة المثمرة فيه جزء من القوة التى تنفق . ولكن الكون مثل سائر آلاب الطبيعة يمتاز بضؤولة القوة المثمرة بالنسبة الى حجمه . وعلى وجه العموم فإن آلية الكون ناقصة كل النقص من الناحية الاقتصادية . وأن الطبيعة تشبه معملا يستهلك فيه مائة الف قنطار من الفحم الانكليزى لكى تعمل عمل قنطار واحد ولا تكاد ترى فى المليون من الرجال « الرجل النافع » . ومن ثم ترانا نميل الى أن نستنبط من ذلك انحطاط الارض ونحسب الكوكب انخالى من الحقى الجهلاء والاشرار الماكرين أسى منها ، ولكن هذا وهم ، وأن العمل الذى يقصد به خدمة الحق صغير فى المظهر ولكنه وحده الباقي وكل ما خلاه يذهب هباء وان رأس مال الحق ولو أنه متجمع من وفورات جد صغيرة هو فى زيادة مطردة ، والسخافات والاختاء يبطل بعضها

البعض . أما الحق فإنه — على النقيض من ذلك — هو الباقي وهو البعيد الاثر وهو خلاصة مجهود الانسانية اذا ما ذهب السخف والحماسة شعاعا بددا . والموت يعني على الاحق والشرير كل تعفية ولا خلاف في ضخامة عدد الانانيين والماديين واللا دينيين . الذين لا يخدمون المثل الاعلى ، ولكنه بحسبه أن يكون له أشياء قليلون ؛ والفلسفة هي فاكهة شجرة الانسانية ولكن الفاكهة ليست بشيء اذا قيس الى ضخامة الشجرة ، والدوحة الهائلة تثمر فاكهة في حجم الاصبع ووظيفة هذا الفرع الياسق هو أن يخرج مثل هذا الجرم الصغير ، والفلسفة وهي غاية اخلقية كانت تعيش من قبل على فتات موائد الامراء الذين حموا جانبها ضد السخف المستفيض ، وهي الآن تعيش على فتات مائدة الدنيا ، وهذه الحالة على ما بها من مهانة أفضل مما لو كان الفلاسفة في الدنيا بالمكانة التي يجب أن يكونوا بها حسب ما نعتقد ، وهناك تجربتان يثبتان الخطأ الكامن في حبس الاموال الجسدية على الاعمال الروحية فقد كانت الثروة التي جمعتها الكنيسة في العصور الوسطى لا تصرف في الغاية التي قصدت بها ، والصدقات الجزيلة الموهوبة للجامعات الانكليزية موزعة بحيث أن جزءاً قليلاً منها يصرف في وجوه الاغراض العلمية

ومن المؤكد أنه لو كان مركز كل انسان في الدنيا مناسبة

للخدمة التي يؤديها المثل الاعلى لكان من الواجب أن يكون
ديكارت ونيوتن وجاليليو وهيجنز من الامراء أو من أصحاب
الملايين في عصرهم ، ولا يستطيع انسان أن يقول ان الخدمات التي
أداها أحد صيارفة المال اذا قورنت الى الخدمات التي أداها
لينييه أو أمبير تعادل نسبة الالف الى الواحد ولكننا بعد اعمال
الفكر نرى أن بقاء الاشياء على حالتها خيراً وبقي ، وحتى اذا صارت
الارض تابعة لنا فان الانسب هو أن ندفع أزمة أمورنا الى يد
الدينويين الذين تحميمهم خفة أخلامهم و غاظة أنانيتهم من وساوسنا
وارتبا كنا وان وجود الاغنياء الذين نحسب أن حياتهم عديمة
الفائدة وأهل التأنق والمودة له من الخطراً أكثر مما تقدر .
فان وجود أمثال هؤلاء لازم لاطلاق الخيول في المضامير واقامة
المراقص وبالاختصار للقيام بأعمال المظاهر الفارغة التي يضيق بها
ذرع الحكيم ولاستنفاد تلك المذات التي يخشى أن يتلهى بها
ونحن لانعرف الى أى مدى نحن مدينون لهؤلاء الذين يأخذون
على عاتقهم عباً أن يكونوا أغنياء من أجلنا . وأنه لا يوجد سوى عدد جد
قليل من الازدهان في طاقته ان يتفاسف ، فالتجمل والزين واللقاءات
في غابة بولون ؛ ومظاهر الابهة والابرا والسباق تستنفد مجهودا لولم
يصرف فيها لكان مجلبة للضرر ومفسدة للنوازع الذهنية السامية ؛
نعم ان كل هذا اللفظ الدينوى لازم ليجلس رجل مثل كيفيه

الوب هادئاً في حجرة مطالعته الى جانب مكتبة قيمة غير مكره ولا
ولامغرى بأن يضيع وقته في مثل هذه المظاهر الفارغة؛ ومن ثم كانت
البلاد التي يوجد بها نظام الطبقات أكثر ملاءمة للعلماء لانهم
في مثل هذه البلاد لا يكون عليهم واجبات سياسية ولا اجتماعية ولا
شيء في الحقيقة يعترض سبيلهم، من أجل ذلك ينحنى العالم برغبته
(في شيء من السخرية) ازاء رجال الحرب ورجال الدنيا، والمفكر
الهاديء يعيش متخلفاً عنهم ويتبعه على آ ناره القسيس بتشده
والناس بأحكامهم الناقصة وافكارهم العامة

والعقل نصيره الزمن ومن هنا مصدر قوته . وهو لا يخسر
فرصة صالحة. بل هو على التقيض من ذلك فان كل ماعداء يذهب
سدى. وأمام الانسانية داخل حدود هذا الكوكب متسع من
الاجيال المتطاولة قبل ان يدركها الاتحطاط وستمر بادوار متتابعة
من التضوج والنضارة . وفي الحين الذي يتمشى الفساد في الفاكهة
الناضجة تكون الفاكهة الجديدة في طريق التكوين، وعدد المحاولات
لا يمكن حصره ، وسيقتحم المضيق ويصل المرفأ شعور تنبهي
واحد من بين العدد اللانهائي

(أتيفرون)

إذن أنت تذهب الى ماذهب اليه هجل فترى ان الله غير كائن وإنما

سيكون

(تيوفراست)

لا اذهب الى هذا بالضبط ، وان المثل الاعلى موجود وهو
سرمدى ، ولكنه لم يتحقق بعد ماديا ، ولكنه سيتحقق يوما ما ،
وسيحققه شعور تنبهي يشابه شعور الانسانية ولكنه سيكون
اسمى كثيرا من حالتنا الحاضرة التعسة المهينة ، بل انه سيكون من السمو
بحيث ان نسبتنا اليه ستكون كنسبة آله مارلى القديمة الى الآلهة
البخارية الكاملة . والعمل الموكول الى كل حي هو أن يعمل على
كمال الله وأن لا يدخر جهدا في هذا الغرض الذى سيتم دائرة
الاشياء بالوحدة . وحتى الآن قد تكفلت الغرائز العمياء والميل
الاشاعرى فى الاشياء بالقيام بهذا العمل . ولكن العقل الذى لم
يشترك بعد فى هذا العمل الكبير سيتولى أموره ويضطلع باعبائه
ويعمل على وجود الله بعد تنظيم الانسانية

ولانهائية الزمن هى العامل الاكبر فى هذا الشأن . وأنا
لا نرى شيئا فى تاريخ الانسانية قبل عشرة آلاف سنة . ونشاط
الحركة العالمية لا يرجع تاريخه الى أكثر من قرن . فإذا ستكون
الانسانية بعد عشرة آلاف أو مائة الف سنة ؟ وماذا ستكون
الدينا بعد مرور الف مليون سنة ؟ ربما لم تكن الارض موجودة
منذ الف مليون سنة . كانت متصلة بالشمس ولم يكن القمر قد
انفصل عنها . فما الذى ستصير اليه فى مدى الف مليون سنة ؟ من
م ٨ - محاورات

المستحيل أن نعرف ذلك ولكن هذا اليوم آت لا ريب فيه
وليست عندنا فكرة محدودة عن حالة المسادة في باطن الارض.
ومع هذا فإن هذه الحالة التي لا يمكننا أن نتصورها موجودة على
بعد خمسمائة فرسخ منا

ولا يعزب عن فكرنا أن الانسانية في يدها الآن وسيلة لم
تكن من قبل وهذه الوسيلة هي العلم ، ولقد توصل العلم في أقل من
مائة سنة الى استخدام البخار والسكك الحديدية والتلغراف الكهربائي
والفوتوغرافيا والانارة بالغاز وآلاف الاختراعات الكيميائية.
وادخال العلم في الفنون الحربية لا يرجع الى أكثر من ثمانى سنوات
أو عشر مضت ، وقد أحدث تغييرات تذهل فردريك الأكبر
ونابليون لو كان أتيح لكليهما أن يبصرها . وليس من اليسير
التنبؤ والاخبار عن حالة الصناعة وفن الحرب بعد مائة سنة ، ومن
العبث التام أن نحاول معرفة ماذا سيصير اليه ذلك بعد ألف أو
عشرة آلاف سنة . ولا شك في أن الارض ستكون موجودة.
بعد عشرة آلاف سنة وستكون صالحة للسكنى برغم ما يعتريها من
أسباب الانحطاط المتفاقم

وأعرف الاخطار التي ستحلف بالحضارة من جراء نقص الفحم
وذيوع الافكار الانانية ، وهما حادثتان من معدن واحد فإن انتشار
الافكار الديمقراطية الوضيعة نفسه ضرب من نقاد الفحم ودليل

انطفاء الحماسة الاخلاقية ، وانقضاء الاخلاص والتفانى ، وآية
افلاس الموارد الاقتصادية القديمة فى الارض ، واحيانا يخيل الى
ان الارض فى المستقبل سيسكنها النوكى الذين يتدفأون فى الشمس
ويعيشون عيشة خول وتبلد لا يملكون فيها سوى ضروريات
الحياة المادية ؛ ولكن العلم سيعمل على تلافى ذلك ويتدارك خطره
وسيستدفع الخطر الاول بالاحتفاظ بحرارة الشمس أو قوة المد
والجزر ، وسيدراً الخطر الثانى بتقدم فن الحرب الذى سيكون
قوة منظمة فى يد ارسقراطية فكرية أخلاقية ، وجيوشنا فى
الوقت الحاضر تشبه ذلك من بعض الوجوه وهى تمكن من فى يده
قيادتها من السيطرة على الجماهير العزلاء غير النظامية ، ولكنها
بهاضعف متأصل لا طباب لدائه لانها مؤلفة من صفوف الناس . واذا
كان الحسد والجشع قد افسدا الناس اجمعين فسيكون من المستحيل
الاعتماد عليهم فى كبح هذه الالهواء الشريرة . واذا كنا نريد ان نتخيل
حالة يحسن ان تستقر عليها الاشياء فلنتصور فئة قليلة من الحكماء يحكمون
الانسانية بوسائل لا يعرفها سواهم ولا يستطيع ان يستخذمها
سائر الناس لانها تتطلب البسطة فى العلم المجرد
ومن ثم فان العلم هو العامل الاكبر فى إنماء الشعور التنبهي الالهى .
ومن الناحية الفكرية هو الكون يتعرف نفسه . ومن الناحية العملية
فهو يقدم للقوة الالهية وسائل لا يمكن ان تقدر مدى تأثيرها . والحقيقة

ان ترقى الشعور التنبهي كان الفضل فيه حتى الآن لقوى الطبيعة والغريزة
تختلف اختلافا يسيرا عن الغريزة المسيطرة على مولد الحيوان
ونشأته . وسيتدخل في ذلك يوما التفكير المستنير وسيصلح العلم عالم
الغرائز وكثير مما نلحقه الآن بباب الغريزة سندرجه بباب التفكير
(أيدوكس)

سيضر ذلك بالفن

(تيوفرست)

لا يخالني في ذلك شك . والفن الراق سيذهب . وسيأتي اليوم
الذي ينظر فيه الى الفن على أنه أثر من آثار الماضي وأنه من خلق العصور
غير المفكرة وتحترم مكانته مع الاعتراف بأنه قد لعب دوره . والنحت
وفن البناء والشعر اليوناني قد وصلت الى هذه الحالة . وهذه العجائب
في ايامنا من المستحيلات وحتى اذا نجح احد في الطبع على غرار القدماء
فسيكون ما تنتجه شيئا خاليا من الحياة لأضرورة لوجوده . وموقع
فناننا من هذه الآيات الفنية التالدة مثل موقع البناء المشيد بالاحجار من
البناء المشيد بالرخام . وأيام النحت الزاهرة تصير معدودة من منذ اليوم
الذي تمتنع الناس فيه عن المسير انصاف عرايا والذي يصبح فيه جمال
الجسم شيئا ثانويا . والشعر الحماسي يذهب بذهاب عصر البطولة الفردية
وليس للشعر الحماسي مكان بجانب المدفعية . وكل الفنون خلا الموسيقى
متصلة بظروف واحوال قد خلت وحتى الموسيقى التي يمكن ان

نعتبرها فن القرن التاسع عشر ستنتهى مهمتها وينقضى شأنها، وماذا يكون من أمر الشاعر والرجل الفاضل؟ إن الشاعر هو المعزى والرجل الفاضل هو خادم المريض، وهذه وظائف نافعة لا ريب ولكنها وقتية لأنها تدل على وجود الشر، هذا الشر الذى يؤمل العلم أن يذهب بقوته، ورقى الانسانية ليس رقىا فنيا البتة، والطبيعة تبلغ قصدها بالفضيلة والفن والعلم، وبخاصة بالعلم، وقد يأتى اليوم (ونحن الآن نرى فجر هذا اليوم) الذى يكون فيه الفنان الكبير والرجل الفاضل أشياء غير عليها القدم. وبطل نفعا. بينما العالم تزداد قيمته ويرتفع شأنه. وسيختفى الجمال بقدم العلم. ولكن تقدم العلم والقوة البشرية هما أيضا أشياء جميلة. وما الذى تعجز عنه الفسيولوجيا مثلاً عندما تكون قد أحلت محل تلك الطريقة التجريبية التى تسمى الطب. ولا تزال مسألة التناسل والتربية خاضعة تقريبا للصدفة. ولم يؤثر فيها العلم بعد، وتصور الثورة الاجتماعية التى ستحدث عند ما تتمكن الكيمياء بمحركاتها فعل أوراق النباتات وامتصاصها أكسيد الكربون من الهواء من اكتشاف غذاء أرقى من ذلك الغذاء الذى تنتجه الخضروات والبهائم وسيأتى اليوم الذى لا يرى الإنسان نفسه مضطرا إلى الذبح للقوت وإن اليوم الذى يحتفى فيه منظر وضم الجزار لكريه سيكون دليل رقى فى تهذيب المشاعر وما الذى سيحدث عندما يصير الإنسان قبل كل شيء مسيطرا

على القانون الذى يسبب نوع الجنين وعندما يكون فى وسعه أن يطبق هذا العلم تبعاً لارادته ؟ وهذه إحدى الاستكشافات القابلة للتحقيق فى المستقبل غير البعيد

فيلايت

إنك تدنو الدنوكاه من رأى تيوكتست . ومما يؤسف له أنه ليس هنا

ايدوكس

تيوكتست يتطرف فى آرائه وهو يخطيء فى محاولته أن يصور صوراً دقيقة لما لا يمكن أن يدرك الا ادراكاً غامضاً . ولكن اشعة من الضوء لائى تطاير من ظلامه الدامس . وفضلاً عن ذلك فإنه جاد وجليل وبسيط ومخلص (ثم يلتفت الى فيلايت) حاول أن تصحبه معك .

فيلايت

سيكون هنا غدا .



(المحاوراة الثالثة) المتخيلات

فيلايت . انيفرون . ايدوكس . تيوفرست . تيوكتست

فيلايت

أَمْضِينَا سَحَابَةَ الْيَوْمَيْنِ الْآخِرَيْنِ - يَاتِيوْ كِتْسْت - فِي اسْتِجَاعِ
أَفْكَارِنَا عَنْ غَايَةِ هَذَا الْكَوْنِ وَالْحَرَكِ الْخَفِيِّ لَهُ . وَنَعْلَمُ أَنَّكَ
مِثْلُنَا تَعَالِجُ مِثَالَ هَذِهِ الْأَفْكَارِ وَتَسَامُ فِي الْهَدْوِ الْعَمِيقِ الَّذِي تَفِيضُهُ
عَلَى النَّفْسِ وَقَدْ كَادَتْ آرَاؤُنَا أَنْ تَسْتَقِرَّ عَلَى أَنْ غَايَةُ الْكَوْنِ هِيَ
الْعَمَلُ عَلَى إِيجَادِ شُعُورِ مَفْكَرٍ أَكْثَرَ تَدْرِجًا فِي الْكَمَالِ . وَلِسْنَا نَعْرِفُ
صُورَةَ لِهَذَا الشُّعُورِ الْمَدْرُكِ الْمَفْكَرِ أَسْمَى مِنَ الْإِنْسَانِيَةِ . وَلَكِنْ
دُونَ أَنْ نَفْكَرَ فِيمَا يُمْكِنُ أَنْ يَوْجَدَ فِي الْكَوَاكِبِ الْآخَرَى فَإِنْ
خَيَالُنَا يَجْتَرِي عَلَى أَنْ يَكُونَ لِنَفْسِهِ بَعْضُ أَفْكَارٍ عَنْ تَرْقِيِ شُعُورِ
الْإِنْسَانِيَةِ الْمَدْرُكِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ

تيوكتست

إِنَّا أَذْهَبَ إِلَى مَدَى أَيْعَدُ مِنْ ذَلِكَ . وَأَطْلَقَ الْعَنَانَ لَخَيَالِي

ليتصور تاريخ ما يوجد وراء حدود الانسانية . وفي صورة تفوقها
وتسمو عنها وبالاختصار في أن أفرض أن للكون غرضا اسمي
من الانسانية

فيلايت

ابسط لنا أفكارك في هذا الصدد

تيوكتست

أن هي الاحلام

ايدوكس

لو كتب كل انسان احلامه عن اللانها في لظهر جانب من الحق
خلال هذه الاحلام . ولكن قليلين من رزقوا مثل هذه البراعة

تيوكتست

ينبغي لنا قبل أن نخوض غمار هذا البحث أن نكون على جليلة
من معنى كلمة « الشعور » وليس من شك في أن الشعور لا يكمل
الا عند ما يتناهي في ذاتية فردية ويتمركز في جهاز عصبي مكون من
مجموعة عصبية ومحرك لتكوين عضوى معين . ولكن يوجد مع

ذلك مجاميع من الاحياء ليست مشخصة على هذا النمط ، وان أممًا
مثل فرنسا والمانيا وانكلتره ومدنا مثل اتينا وفينيسيا وقلورنسا وباريز
لتنصرف تصرف أفراد لها عقلها وميزتها الخاصة ومصالحها المحدودة .
ويمكن أن نتحدث عنها كما نتحدث عن فرد من الافراد ، ولها مثل
الكائن الحي غريزة خفية وشعور بالجوه وحرص على صيانة النفس .
وهذا الى حد أنه اذا تركنا أسلوب التفكير السياسي فان الامم
والمدينة يمكن أن يقارنا بحيوان بارع الحيلة بعيد الغور عند ما يحاول
الاحتفاظ بكيانه وتأيد نوعه ومثل هذا يلزم أن يقال عن الكنائس
والاديان وعن كل الجمعيات التي تكون مجاميع عضوية والتي تنصرف
تصرف الفرد وتسلك سلوكه وأعظم ما انتهت اليه الفسيولوجيا الحديثة
هو أنها ترى أن حياة النبات وحياة الحيوان ليست سوى مجموع
انماط أخرى من الحياة قد تضافرت وانسجمت واندجت في
وحدة فذة . وحياة ذى الفقرات هي نتيجة تتركز فردية كل فقرة ،
والشجرة هي ائتلاف آلاف البراعم ، فكذلك الشعور هو نتيجة
تجمع ملايين المشاعر متجهة الى نفس الغرض ، وان الخلية هي
تتركز صغير شخصي ولكن عددا كثيرا من الخلايا ينشأ عنه
شعور من الدرجة الثانية (انسان أو حيوان) والشعور في
الدرجة الثانية عند ما يتجمع يتكون منه شعور من الدرجة الثالثة
مثل شعور المدن والكنائس وشعور الامم الناشئة من انتظام

تفكرة واحدة للملايين من الاحياء واشتراكمهم في العواطف . والمادى لا يرى في الوجود سوى الذرة . ولكن الفيلسوف الصادق والمثالى يرى ان الخلية اصدق وجودا من الذرة . وأن الفرد اصدق وجودا من الخلية . وأن الامة والكنيسة والمدينة اصدق وجودا من الفرد . ومن ثم فان الفرد يضحي نفسه لاجل هذه الداتيات التى تعتبرها المادية الغليظة محض تجريدات

ويلوح لى أن الحب أقوى مظهر لهذا القانون الداخلى للحياة . وأسطع برهان عليه . والحب لا يمكن تفسيره الا بأن شعور الذرات كائن من قبل . والفرد المراهق يحمل فى نفسه ملايين المشاعر الغامضة التى تتطلب الوجود وتشرئب اليه . وقد منحت الاحساس الغامض بالاحوال اللازمة لنمائها وزيادتها والتى تجعل الفرد يقاسمها رغباتها ويشاطرها أحزانها : وأشد الناس تعلقا بالفضيلة لا يستطيع أن يمنع هذه الخلائق الجنينية التى تعد بالملايين من ان تصيح فى أعماقه صارخة « انا نريد الحياة » . وهؤلاء الخلائق الصغار — واسمهم الرجال الموجودين بالقوة — متحدون بذاتنا ومكونون لجزء منا وينظرون بعيوننا ويشعرون بحواسنا ويكونون حكما غريزيا عن الظروف التى يبرزون فيها من سجنهم ويقدمون الى الحياة وهذا هو علة أن الحب ينفجر فى نفوسنا على غير ارادتنا . وليس فى طوقنا مقاومته وهو مبتوت الصلة بالاحساس الادبى ،

ولذا فان معركة الحب والواجب احدى المسائل الجوهرية فى الفن السامى ، لان هذه الخلائق الصغيرة لاتراعى الاخلاق ولم تقرأ ملتس وهى لاتطمح الا الى الوجود التام الحافل ، وهى لاتتدخل فى دقائقنا ولاتفهم وساوسنا الاجتماعية ولها آداب مستقلة عن آدابنا وقوانيننا ومن ثم الكفاح الناشب بين الفلسفة المجردة والتقدير الساذج الذى تقدره هذه الجرائم الحية فى داخلنا والى هي جزء منا والى متى أرادت شيئاً حملتنا على الرغبة فيه ، وبين الكائن المفكر الذى يتدبر نتائج عمله جنين الجنين الصغير الذى لايعرف الا الرغبة فى الوجود ، وهذا هو علة أن الذى ينبه الغريزة الجنسية فىنا أشخاص لانراهم فى الغالب أهلاً لتقديرنا لان المخلوق الجنينى لا يراعى إلا ما يلائم وجوده ، وهذا هو منشأ المشكلات الاجتماعية التى لاتنقطع ، لان الزواج يستازم التقدير الاخلاقى والحب النوعى وهما حالتان قد يلتقيان وقد يكون من الطبيعى أيضاً أن لايجتمعان ، وتمكن أن نستنبط نفس هذه النتيجة — أى فردية الجرثومة — من قانون الوراثة والرجعى ، فان نماء الجنين فى أول أمره والطريقة التى يفتَضُّها كل انسان للحياة هى ثمرة عادات وتجارب اكتسبها أسلافه ، وكل كائن قد عاش فى اجداده وخضع لسلوكهم ولبى رغباتهم وتأثر بالمشاعر الغالبة عليهم ، وان حفيد العبد لايزال يحى الظاهر خافض الرأس ، والعبد العتيق يحيد بطبيعته عن

طريق من اخافوا اجداده ، والتواءات الغريزة الجنسية ليست سوى اخطاء الكائن الصغير المستسلم لدلائل واهمة في حالات لم يدخل فيها العقل ليحسم الخطأ ويضع الامور في نصابها

واذا بدأنا من هذه الفكرة انتهينا الى تصور شعور للانسانية في المستقبل أسمى وابعد اصعادا في الرق مما هو موجود اليوم ، وستكون الانسانية في ذيك الوقت مثل الدوحة الهائلة براعمها الافراد قد اتحدت فيها المشاعر وتمازجت وتكون منها شعور شامل عام كما كان يقال عن الكنيسة في با كورة امرها « المؤمنون قلب واحد وروح واحدة » والحكومة في العصر الحاضر تعطينا صورة مشابهة لذلك لانها توجد مثالا على للفن والعلم واخير وتنفق عليه من النقود التي جمعها من دافعي الضرائب وجمهورتهم من الماديين والملوكية ترينا القومية متمركزة في فرد أو اذا شئنا في اسرة كبيرة وهي تصل بذلك الى أسمى درجات الشعور القومي اذ انه لا شعور يعادل هذا الشعور المنبعث من الذهن مهما كان الذهن عاميا . والفروض التي نتصورها عن صور هذا الشعور الالهي تنحصر في ثلاثة أشكال . الشكل الملكي . والشكل الاوليجراثي (حكومة الاشراف) والشكل الديمقراطي . وذلك حسب تصورنا الشعور العام متجمعا في فرد قد استغرق الجميع . أو محصورا في

عدد قليل من الافراد يحكمون سائر الناس . أو موزعا في الجميع
يطريق الرغبة والتصويت

اتيفرون

هذا ما يترك الالباب حائره ، فاسترسل فنحن مصغون
إليك

تيوكتست

يظهر لى أن الحل الديموقراطى أبعد بها عن التحقيق حسب
نظام الافكار الفلسفية التى يروقنا الانغماس فيها ، وضعوا نصب
عيونكم أننا على بعد الف فرسخ من السياسة . ول كلماتنا هنا
معانيها الواردة فى تعاريفنا وتحديداتنا

اتيفرون

هذا مفهوم

تيوكتست

ولا يمكن أن نتصور اعتناق البشر كافة للعقل ودخولهم فى

حظيرته جميعا فأن الاكثرية الكبرى من الاذهان البشرية غير مستعدة لقبول الحقائق مهما قل نصيب هذه الحقائق من السمو . والنساء لم يخافن لمعالجة مثل هذه الامور فحسب بل ان الاقبال عليها يشغلن عن وظيفتهن الحقيقية وهى ان يكن خيرات أو جميلات أو أن يجمعن بين الصفتين وكون الامر كذلك ليس غلطتنا وليس غرض الطبيعة — ويلزم أن نعتقد ذلك — ان يعرف الناس كلهم الحق . وانما غرضها ان يعرف الحق بعض الناس ، وان تحفظه بعد ذلك الرواية والسنة

والفكرة الديمقراطية فى نظر رجال الدين منقوضة من أساسها . فان صور الشعور مقدسة ولكنها ليست متساوية ، فأين تقف ونضع الحد ؟ ان للحيوان أيضا حقوقه وهل لهمجى . الاسترالى حقوق الانسان أو حقوق الحيوان ؟

إن العمل على رفعة الناس قاطبة هو أول واجبات المجتمع . ولكن رفع الناس كلهم الى مستوى واحد أمر مستحيل . ومادامت الدنيا كماهى فأننا لانستطيع أن نزع أن هذا يعود عليها بعميم الخير . لأن الرجل الذى تعلم فى المدرسة ليس أسعد حالا لذلك . وهذا الولشل من المعرفة التى اكتسبها يفقده نضارة الفطرة ولا ينجيه ثمرة التعليم العالى ، وإذا بسطت الثقافة الباهرة ظلها على فريق من الانسانية فان الفريق الآخر يخدمها ولا يأخذ إلا بنصيب محدود .

منها، وإنما المهم الجوهرى هو أن توطد الثقافة الباهرة مركزها وتجاهس على عرش الدنيا بأن تجعل الأوساط التى قل نصيبها من التثقيف تشعر بتأثيرها المبارك، وإذا تم ذلك فليس علينا أن نشغل على الآخرين ونزهرتهم ونكرهم على أن يأتوا بأعمال اليقين، وقد أخطأت الكنيسة فى توهمها أنه من الصالح إرغام الناس على قبول صيغ لا يفهمونها، وإنما سياسة العلم إذا استلم صولجان السيادة ستكون أشبه بسياسة الأسلام منها بسياسة المسيحية، فإن المسيحية عمدت الى الاضطهاد لأنها كانت تعتقد أن اليقين الدينى يؤثر على الشخص تأثيراً حسناً — ولو لم يفهمه — وينقذه وينجيه مثل الحبة التى يبتلعها دون أن يعرف محتوياتها، والأسلام على عكس ذلك. فانه قليلا ما كان يرغم الذين انتصر عايتهم على قبوله. بل لم يعلق أهمية كبرى على اعتناقهم له ولا نرى أية فائدة كبرى فى أن ينتسب للعلم من لا يفهمه ومحسبه أن يخدمه وينحى أمام قوته التى لا نزاع فيها. وماذا يعنى اذا كانت الملايين من المخلوقات المحدودة الفكر التى يكتظ بها هذا الكوكب تجهل الحق أو تنكره مادام العقلاء ينظرونه ويكبرونه؟ ولماذا نضايق الغير بتفكيرات لم نخلق لهم؟ أن نظريات ابل وكوشى لا تفقد شيئاً مما فيها من الحق لأن فهمها مقصور على مائة شخص؛ ويكفى لأمثال هذه الحقائق العالية

أن يراها عدد قليل من المفكرين وأن تسجل في الكتب ليعرفها من أراد معرفتها في أحد الأيام ؛ وأن العقل والعلم من انتاجات الإنسانية ولكن أن نطلب العقل مباشرة لأجل الناس ومع الناس وهم من الاوهام وخيال باطل . وليس من الضروري لوجود الحق وجوداً كاملاً أن تدركه كل الناس ، وعلى أية الطرق فإن نشر مثل هذا التهذيب العقلي — إذا حدث يوماً ما — لا يتم على يد الديمقراطية الوضيعة ؛ وذلك لأنها — على العكس من ذلك — تهدد بمحو كل الثقافة الغريزة النيل وكل ضروب التهذيب العالي ، والمثل الأعلى للمجتمع الأمريكي هو أبعد المجتمعات عن المثل الأعلى للمجتمع الخاضع للعلم ، وفكرة أن المجتمع موجود لصالح الأفراد وحريتهم لا تأتلف مع مقاصد الطبيعة التي لا تحفل إلا بالأنواع وتضحى بالفرد ، وإنه ليخشى كثيراً أن تكون الكلمة الأخيرة للديموقراطية — حسب هذا الفهم — «ولو إني أشعر بأنه يمكن فهمها بشكل آخر » — حالة اجتماعية متدهورة لا غرض للقوم فيها سوى الانغماس في الشهوات الوضيعة .

ايدوكس

حقيقة انه ليس من الامور الواضحة الواضوح كله لماذا خلق الله الدنيا لغاية حقيرة الشأن الى هذا الحد ، ولكن ألم يكن الاحسن اقناع الانسانية بدلا من خداعها وإخضاعها ؟ .

تيوكتست

نعم ، ولكن بطريق غير مباشر ، وباليقين بلا مريية ، أما
الاقناع المباشر بالبرهان الناصع فهو من المستحيل ، ولقد اهتمدينا
إلى أفكار قليلة لم تسلم من النقص عن هذه البحوث الغامضة
واقضانا ذلك حياة ملأى بالتفكير ضحينا فيها بكل شيء وتركنا
كل هم وألقينا عن كاهلنا كل مسؤولية بل ربما واجباتنا أيضاً ،
فكيف نروم أن نصير مثل هذه الأفكار نريية الانسانية العامة

فيلاليت

هذا حق

تيوكتست

ومن ثم فكون الديمقراطية تحقق الله أمر قليل الاحتمال ؛
والديمقراطية الحزبية المتحاسدة هي تماماً ما يصح أن نسميه الخطيئة
الدينية بطبيعتها . وذلك لان الغرض الذي تسعى اليه الدنيا وتكدح
من أجله ليس هو انزال القمم العالية بل هو يلزم أن يكون على
العكس من ذلك - خلق الآلهة والكائنات الاسمي التي ستعبدوها
سائر الخليفة وتخدمها وتجد لذتها في ذاك . والديمقراطية في هذا
المعنى معارضة لفكرة الله . لان الله لم يرد أن يعيش الناس كاهم
عيشة روحية متساوية ونحن لا نتعصب للنظام القديم لانه أخذ
حرية الفكر وأرهق في أغلب الأحيان العلماء . ولكن ديمقراطية

بلا مثل أعلى لا تكون خيرا لهم منه . اما في الحاضر فينبغي لنا أن
نفضل الديمقراطية لانها أقل منافرة لحركة تقدم الروح من النظام
القديم . ولكن الاسترخاء الذي تحدثه قد يكون وخيم العاقبة على
مر الايام . والاخلاص التام لازم للعلم . ولذا لا ينبغي العلماء الفحول
في الامم المتكسبة الاخلاق أو الامم السطحية . والعالم ثمرة انكاد
كنفس ومجهود صادق وتضحية جيلين أو ثلاثة . وهو يمثل اقتصاداً
لييرا في الحياة والقوة . ولا يمكن طائفة من العلماء أن تكمل صفوفها
من داخلها . ويلزم أن يكون هناك شوائب لتخرج منها . والمسيح
المخلص لا يظهر بين قوم عنانهم في يد الانانية متهافتين على اللذات
الوضيعة . ولا بد للمفكر ان يجد قوما يقومون بنصيبه من العمل
والكدح ولو لم يقدروا عمله ولم يفهموه . وهل اعدى الروح من هذه
الديمقراطية التي لا تقدر سوى ما تستطيع فهمه او بالحرى ما تتصور
انها تفهمه ؟ والتعليم الابتدائي سيقبل من نكران النفس لان هناك
ما يبعث على الخوف من ان الذين تعلموا التعليم الابتدائي لا يميلون
الى الاشتراك في المحافظة على ثقافة اسي من ثقافتهم . اى انهم
لا يرغبون في خلق اساتذة لهم

وموجز القول ان غرض الانسانية هو خلق العظماء . والعمل
العظيم سيتمه العلم لا الديمقراطية ولا يمكن ان يتم شئ بغير العظماء
ولا خلاص بغيرهم . وعمل المسيح - او المخلص - انما يضطلع

بأعبائه الفرد لا الجماعة. واننا نعلم الامم التي لاتصنع سوى الاشياء الفاخرة - مثل فرنسا - والتي تنسج الحرير ولا تصنع الكتان العادى . وامثال هذه الامم هي التي تخدم الرقى اجر خدمة. والامر الجوهري هو ان ننتج عبقریات كبيرة أكثر من الجماعات المستنيرة وان نخلق الوسط الذى يفهمها . واذا كان جهل الجماعات شرطاً لازماً لهذا ازداد الطين بلة . والطبيعة لا تترىث فى سيرها تلقاء هذه الاعتبارات . وهي تضحي انواعاً برمتها لاجل ان تجد الانواع الاخرى الاحوال اللازمة لوجودها

وعلاوة على ذلك فان هذا النظام والتدبير الذى دبرته العناية ليس فيه ضحية فجميع يخدمون غاية سامية . وفى القبضة من الخنطة التي ينثرها الزارع ثراً فانه حتى الحبوب الفاسدة لها نفعها واذا كانت المسألة هنا مسألة السعادة الشخصية فآه ! انا لا أدرى من الذى حرم من ميراثه؟ وان كل انسان سعيد فى مكانه . وأهل الدنيا ورجالها لهم آلاف المرات التي ليست لنا . انهم يتسلون ويلهون . ومن منا لم يخالجه الحسد عند مروره بجماعة من البسطاء ؟ ومن منا لم يستمع الى اغانيهم الفرحة وقد أخذته الغيرة ؟

وهذا العالم السامى الذى نحلم به لتحقيق العقل الصافى لا يكون فيه نساء . فان المرأة ستظل مكافأة الوضع يجد فيها حافزاً للحياة . وهو فى ذلك ليس أتمس الناس حالة ولا أضيعهم مكانة

ايدوكس

عندما اصني اليك اميل الى أن أقول مع ستر بسياديس في
ارسطوفانيز « انك لن تقنعني ولو أنك تقنعني ». ونحن حريصون
الحرص كله على أن نعرف ماذا يقصده بقولك الحل الاوليجراشي
لمسألة الوجود

تيوكتست

هذا الحل أسهل تصورا من الحل الديمقراطي . وهو يماشي
أغراض الطبيعة الظاهرة فان فريقا مختارا من الازكيا في حوزتهم
أهم أسرار الحقيقة سيحكمون الدنيا بالقوة المسخرة لهم وسيمدون سلطان
العقل الى أقصى حدوده الممكنة

ايدوكس

لقد انتهى تيوفرست أمس الى أفكار شبيهة بهذه الافكار
تيوكتست

ان أمثال هذه الافكار تطالعا من كل الجهات . والتوسع في
فن الحرب سيجعل الحكومة العالمية ممكنة . وستكون هذه
السلطة مستقرة بلا نزاع في يد من يملك هذه المعدات الحربية
والترقي في صناعة معدات الحرب سيؤدي الى عكس الديمقراطية.
وسيكون اداة مناعة وتحصين للقوة لا للجماعات ، لأن المعدات
الحربية العالمية لا يستطيع استعمالها الا الحكومات لا الناس. وفي

العصور الوسطى ضمنت حيازة الخيل العتاق وجيد الاسلحة التفوق المطلق للاشراف على الدهماء مدة قرون . ولقد أباد سبعة وعشرون فارساً جمعاً برمته من الفلاحين الثوار عند قنطرة السوق في «ميو» في يوم واحد . وقد كان نفع البارود في أول أمره وفقاً على أغراض الملكية . وفي المستقبل ستوجد آلات تكون عديدة الفائدة في غير أيدي العلماء الخبيرين باستعمالها . ومن هنا يمكننا أن نتصور الوقت الذي ستبسط فيه فئة من الرجال سلطتها على سائر الناس دون أن ينازعها أحد سلطانها وستوجد اذ ذاك في عالم الحقيقة هذه القوة التي كان يعزوها خيال الناس للسحرة . وستتحقق اذن فكرة السلطة الروحية تلك السلطة القائمة على أساس التفوق الفكري . ولقد حكمت البرهمية مدة قرون بفضل ايقاعها في روع الناس ان البرهي يستطيع بنظرة أن يصعق من يثير غضبه . وهذا الاعتقاد لقيامه على الخطأ والباطل لا يصاح ليكون أساساً مستوثقا . ولكن العلم قد يصل في أحد الأيام الى قوة مشابهة لهذه القوة غير مشوبة بالباطل . وسيكون تفوق الوسائل التي بيده من القوة والضخامة بحيث لا تقوم ضده أية ثورة . ولقد كان العقائد المسيحية مدة قرون القدرة على تحريق منكريها . فكذلك العلم سيبيد مباشرة من لا يدين بعقائده . ولقد حاولت الكنيسة في العصور الوسطى أن تحقق القوة الروحية . ولكن لم يكن في يدها القوة الكافية . ولذا ظلت ضعيفة مكرهة على الاستعانة

بلا انقطاع بالقوة الدنيوية التي كانت تملئ عليها شروطها وتتطلب نظير ذلك انقاص الحقوق الاكليروسية. والقوة الروحية لا تكون قوية منيعة الجانب الا اذا كانت مسلحة وفي يدها قوة مادية لا تخضع الا لها. أى قوة تقهر أعدائها وتخضع شوكتهم مثل القوة الوهمية التي كان يملكها البرهي بالخوف الذي توحيه نظراته

ولقد كان في يد الكنيسة عوضا عن الجيوش الرهيبة الخوف من النار . وقد كان سلاحا فعلا في عصور اليقين والايمان . وبهذه الوسيلة بسطت سلطانها على البرابرة الذين استنفرتهم . بعد ذلك لتنفيذ أوامرها واكتسبت لنفسها مكانة عالية . ولكن هذه الحماية فقدت كثيرا من قوتها عندما صار الناس لا يخافون كثيرا من النار كما فقد البرهي نفوذه لما صارت الناس لا تصدق بنظراته الغاضبة . ولا بأس في أن اقول اني في بعض الاحيان احلم حلمًا سيثا فاتوم ان هناك سلطة سيكون الجحيم تحت نفوذها . الجحيم الحقيقي لا الجحيم الوهمي الذي لم يقيم دليل قط على وجوده ايدوكس

في اى كابوس مفرع استسلمت لهذه الفكرة

تيوكتست

هل هي أشد هولًا مما نراه بعيننا ؟ واستحالة الحرب الى خوف زاجرو وتحريق الاسرى لئلا نهم ارتكبوا جرما وانما لا يقع الخوف

فى قلوب الناس ومنعمهم من الدفاع عن أنفسهم — تلك النظرية التى أهملت من عهد « لوفوا » — تعلن الآن بصراحة ويعترف بها . وتقول هذه النظرية ان القسوة قوة وان لها فى الشؤون البشرية مزية لا يمكن الاستهانة بها . وجهنم الكاملة من هذه الوجهة تعادل كتيبة من الكتائب لانها تثير نفس الخوف . ولقد عرف ذلك دوق الفا . وعرفه ايضا اجا توكل والقرطاجنيون الذين كانت القسوة جزءا من سياستهم . واذا تدبرنا الامور وجدنا أن القوة للموقوفة تحت تصرف الناس ليست سوى الخوف الذى يثيرونه . وهذا الخوف قد ينشأ من وعيد حقيقى او خيالى فالقوة والمخادعة من هذه الوجهة نظيران . احدهما تقوم مقام الاخرى ولا تحتاج اليها ولقد أقف قساوسة الغال هب قبائل الفرنك وقتلهم الناس ايقافا فعلا بايقاعهم فى اخلاذهم الخوف من القديس مرتن . ولكن الخرافات — على النقيض من ذلك — لا تجدى نفعا لزاء جنكيز خان أو تيمورلنك

(ايدوكس)

من خطل الرأى ان تطلق العنان لافكارك وتدعها تسرح فى هذه المسالك الويلة . الا ترى الى ان الحاسة الاخلاقية المتأصلة فى الانسان تجعل امثال هذه الفظائع المنكرة امرا مستحيلا وان للردة التى تصفها لا تجد لها معدات ؟

(تيوكتست)

لا تخرجنى والاشرح لك فرضا يجعل كابوس احلامى امرا
محتمل الوقوع . انى لم اقل قط ان المستقبل مفتر الباسم . ومن يدرى ان
الحقيقة ليست محزنة ؟ والقوة لم تحتفظ بنفوذها على البشرية الا بالحيلة
التي اصطنعها هؤلاء الذين في يدهم زمامها في جعل هجاجات الجماهير
آلات صمياء مسخرة لاغراضهم . والمستبدون ذوو الاغراض المادية
الذين تحدثت عنهم ما كانوا ليترددوا لحظة في ان يحتفظوا بنواة من
الباشك او الكالماكس في احدى مجاهل آسيا ويحرصوا عليها لتكون
آلات خاضعة لهم الخضوع كله فلا تحجم عن ارتكاب كل ضروب القسوة
ولا تعوقها الوسوس الادبية . ولا تنس علاوة على ذلك انى افترض
تقدم ماورق اعظام الشعور الانسانى وتحقيقا للحق والعدالة على صورة
لم يعهد لها الناس من قبل . وأنا افترض (وأظن انى على حق في هذا) ان
هذا التقدم يتم على يد ارسوقراطية في طبيعة الانسانية . وتكون هي
مستودع عقل الجماعات . ومن الواضح ان حكم قسم من الانسانية لقسم
آخر منها حكما مطلقا امر مكروه مستنكر اذا افترضنا ان الفئة الحاكمة
لا تحركها سوى المآرب الشخصية او الأناية الحزبية . وإنما
الارستوقراطية التي احلم بها سيتمثل فيها العقل وستكون بابوية لا
يأتيها الباطل ولا يمرض لها الخطأ . وستكون القوة في يدها قوة
تدر الخير . ولا حاجة الى المساومة مع مثل هذه الارستوقراطية .
وستكون هي القوة التي لها الحق بطبيعة الحال . اذ انها ستدعم آراءها

الحقة بالخواف الحقيقية. والبرهي لم يصعق احدا ولقد اقام مذهبه الباطل على خوف لا اساس له. ولكن الكائن الذي في يده العلم سيوقف خدمة الحقيقة خوفا غير محدود وستصير المخاوف باطلة النفع ، لان سواد الانسانية - بمقتضى هذا الفرض - ستملك عليه هذه الحقيقة مذاهبه فتبطل نفس فكرة الثورة وسيصير الحق يوما هو «القوة» وإن قوهم المعرفة قوة هي أجل ما قيل . وسيبصر الجاهل آياتها فيؤمن. وستدل النظرية على نفسها بتطبيقاتها العملية وإن النظرية التي تبرز الآلات رهيبة غالبة للجميع كاسرة لشوكتهم لتثبت صدقها بطريقة غير قابلة للنقض. وستكون قوة الانسانية محصورة في يد عدد جد قليل. وستصير في حوزة عصابة قادرة مسيطرة على حياة الكوكب. وهي تخيف بذلك الدنيا بأسرها . وفي اليوم الذي يملك فيه المحبون بفضيلة العقل الوسيلة للقضاء على هذا الكوكب تستقر فيه سيادتهم. وهؤلاء الأشخاص الموهوبون سيحكمون بطريق بث الخوف المطلق لأن حياة الجميع في قبضة يدهم . ونستطيع أن نقول بأنهم سيكونون آلهة . والمصر الديني للانسانية الأولى الذي حلم به الشعراء سيصير حقيقة . ولقد كان الخوف هو أول باعث على خلق الآلهة في الدنيا . ومن ثم نستطيع أن نتصور عصرًا تؤسس فيه القوة حكم العقل دون الركون الى الأكاذيب . فأن الكذب سلاح العاجز يصطنعه في مكان القوة . وستصير عبادة العقل حقيقة لأن من يعمل على

مقاومتها — أى من لا يعترف بحكم العقل — سيقضى نحبه فى التو واللحظة وأى حماقة صبيانية كان هذا الاحتفال بالعقل المكون جيشه من قوم غير حصفاء نصيبهم من العقل طفيف وثباتهم ضعيف وجل سلاحهم الحراب وردى البندقيات ! وعندما يصير العقل مكتمل القوة سيغدو هو الآلهة الحققة ، ولا يكون من الضروري إذ ذاك أن نتحدث عن السلطة . فانه ليس لهذه الكلمة من معنى الآن سوى الدلالة على قوة الرأى وهى قوة غير فعالة ، بل هى مجرد ألعوبة لفظية ، وستبلغ قوة العقل حينذاك أسى درجاتها لأن كل من ينكرها يقضى عليه بالموت الوحى ، وستكون وسائل المقاومة غير مجدية لأن هذا سيكون تحقيقاً لما كان يتخيله الناس من قبل انتقام الآلهة ، بل أن الحقيقة ستفوق الخرافة لأن انتقام الآلهة كان بطيئاً غير مؤكد ولا تام وكما نعرف الآن — خلوا من الصدق ، فى حين أن الدلائل على صدق القانون العالمى ستكون غير قابلة للخطأ وسريعة حاسمة وستكون مثل الطبيعة نفسها لا تقض لأبرامها .

ايدوكس

أريد أن أحدثك عن اعتراض واحد بين آلاف الاعتراضات التى يمكن أن أوجهها اليك . إنك تفترض تقدماً عظيماً للعلم . وأنت على حق فى ذلك ، ولكنك لم تتحدث عن حالة الإنسان

المفكر . وان ترقى العلم والقوة الذى وصفته ليفوق ما فى طوق العقل
البشرى . وهناك تناقض بين انتصارات العقل التى تتصورها وبين
الاستعدادات الفكرية والعضوية المحصورة على الدوام

تيوكتست

لقد قلت لك أن الافكار التى أعالجها الآن لا تنتسب كل
الانتساب الى كوكبنا الارضى والواجب أن نعرف أن مثل هذه
الافكار ترمي الى ما هو اسمي من الانسانية . ولا شك فى أن
الشخص المفكر العارف سيكون ابدا محدودا ، ولكن المعرفة
والقدرة غير محدودتين ، ومن ثم تستطيع الطبيعة المفكرة مضاعفة
قوتها دون أن تتخطى حدود البيولوجيا ، وأن التطبيق الشامل
لمستكشفات الفسيولوجيا ولنظرية الانتخاب يمكن أن يؤدى الى
خلق شعب سام يكون له حق الحكم لا عن طريق العلم فقط بل
بنفس التفوق فى الدم وفى الذهن والاعصاب ، وستوجد حينذاك
مخلوقات تعادل قيمتها عشرة أضعاف قيمتنا . وتستطيع أن تعيش
فى وسط صناعى ، والطبيعة تصنع الشيء ليعيش فى الأحوال العامة
ولكن العلم يمكنه أن يمد حدود القابلية للحياة ، ولقد عملت الطبيعة
الى هنا كل ما تستطيعه ، وقواتها المرسله على سجيتها لا تتجاوز
هذا الحد الذى بلغتة ، وعلى العلم أن يتولى العمل حيث تركته
الطبيعة ، والعالم النبأى يحفظ بالطرق الصناعية خسرات سرعان

ما تختفى اذا لم تتعهدا يد الانسان ، ومن الممكن أن تتصور عصرًا
يقوم فيه ايجاد الآلهة بمبلغ محدود يشمل ثمن الجهاز النفيس والمجهود
البطيء والانتخابات الشاقة والتربية المعقدة وصيانة مثل هذا المخلوق
ضد الطبيعة ، وقد ينشأ مصنع لعمل الآلهة في وسط آسيا ،
واذا كان أحد من الناس يمقت هذا النوع من الاساطير فليتنظر
الى تصرف النمل والنحل في تحديد الوظائف التي يوقف كل فرد
منها لها حياته ، ولينظر الى الوسائل التي يصل بها النبات الى خلق
النوادر الصناعية؛ وسر هذه الشواذ في التغذية أو بالحري في انماء
عضو من الاعضاء بتعطيل عضو آخر ، ولنذكر هنا هذا الاستاذ
الفيدى الذى اسمه — حسب ما يقول برنوف — « من ذهبت مادته
المانوية الى رأسه » ، وكما أننا نحصل على الزهرة المضاعفة بالزيادة في
التغذية أو بنقل اعضاء التناسل اذان التزهير والاثمار يستنفدان
الحياة فكذلك قد توجد يوما الوسائل لحصر كل قوة الاعصاب
في الذهن بايقاف الطرف الآخر وتعطيله اذا ساغ لنا القول، وهذه
الوظائف يضعف بعضها البعض . لان الممنوح لواحدة منزع من
الاجرى، ولا حاجة للشك في أننا لا نتحدث هنا عن هذا البتر المنجل
الذى لا ينشأ عنه سوى مخلوقات ناقصة ، وانما نتحدث هنا عن نقل
داخلى نستطيع به أن نوجه الى غاية واحدة القوى التي صرفتها
الطبيعة في شؤون مختلفة ،

ويمكننا أن نتصور (خارج هذا الكوكب من غير شك) إمكان وجود كائنات بينها وبين الإنسان من البون مثلاً بينه وبين الحيوان ، وعصراً يتبدل فيه العلم من الحيوانات الموجودة بأخرى أرق منها كما استعاضت الكيمياء عن طائفة من المحصولات الطبيعية بطائفة أخرى أكل منها ، وستخرج الآلهة من الإنسانية كما خرجت الإنسانية من الحيوانية ، وستوجد كائنات تستخدم الإنسان كما يستخدم هو الحيوان ، وقليل ما يستوقف فكر الإنسان أن خطوة واحدة منه ونجرد حركة تسحق عشرات الآلاف من الدويبات ؛ ولكنني أكرر أن التفوق العقلي يستصحب التفوق الديني ، وسيتمثل في سادة المستقبل الحق والصالح وسيكون في الخضوع لهم سروراً إيماسرور

وان مسألة عدم تساوى الشعوب وصحة الحقوق التي يخولها التفوق الشعبى هي أشد ما تنكره الديمقراطية ، والديموقراطية لا تعمل على اعلاء الشعب وانما ترمى الى الاسفاف به وهي لا تريد العطاء ، ولو كان حاضر امرنا ديمقراطى وسك مسمعه حديثنا واهتمامنا بترقى الوسائل خلق سرارة للناس لمرته الدهشة ، والحقيقة انه من السخف والجور ان نرغم الناس بنوع من الحق الالهى على قبول سادة ليسوا اسمي منهم فى الكثير ولا فى القليل ، واشراف الوقت الحاضر فى فرنسا لا شأن لهم ولا خطر لان ثلاثة ارباع

القباب الشرف مغتصب ، والرابع الباقي — اذا استثنينا منه ما يكاد يقرب من العشرة — مستمد من الانعامات الملكية لا من الفتح ، فهي لا تدل على شئ من التفوق الشعبي كما هو الاصل في النظام الارستقراطي ، ولكن هذا التفوق الشعبي يمكن أن يصير حقيقيا ، وتكون اذن الارستقراطية حقيقة علمية صادقة غير منكورة مثل تفوق التمدنين على الهمجي المتوحش او مثل تفوق الانسان بوجه عام على الحيوان

وعلى هذا النسق يمكن ان نتصور عصر ا قد صارت فيه كل سلطة كانت قائمة قديما على الوهم والرأى الواهى متينة الاساس صادقة ، ووجود الانسان والعقل سينفع حياة جديدة فى الآلهة والجنة والنار والقوة الروحية والملوكية والارستقراطية وحق التفوق الشعبي وقوات مافوق الطبيعة ، ولو تحقق مثل هذا الحل إلى أى حد على وجه الأرض لكانت ألمانيا هى التى تحققه حسب ما يظهر لى .

ايدوكس

أتقصد بذلك الاطراء أم النقد ؟

تيوكتست

فسره حسبما تشاء ، إن فرنسا دائماً تميل الى الحلول الحرة الديمقراطية ، وهذا هو فخارها ، ومثلها الأعلى هو سعادة الناس وحريتهم ، فاذا كانت خاتمة الاشياء هى ان يستمتع الافراد فى

هدوء بحياتهم المحدودة — وهو أمر محتمل بعد كل شيء — فإن فرنسا الحرة اذن على حق . ولكنها ليست البلاد التي يتم فيها التوازن والانسجام أو اخضاع الشعور العام الذي تحدثنا عنه . واما اذا جاء الامر على عكس ذلك وكان للعقل أن يحكم الدنيا فسيكون ذلك أكثر ملاءمة لعبقرية ألمانيا التي تبدى اهتماما قليلا بالمساواة وبقيمة الفرد والتي ترمى الى انهاء قوى الشعب الفكرية قبل كل شيء .

اتيفرون

لقد غاب عنك أن في عصر الآلهة المتباعدة سيكون قد انقضى منذ زمان بعيد الفرنسيون والسلاف والجرمان . وستكون هذه التنوعات الاقليمية الخفيفة قد محيت من ذاكرة التاريخ نفسه

تيوكتست

أريد أن أكون من الانسانية الموجودة بصورة موجزة للمعارك العظيمة التي ستقع في المستقبل

ايدوكس

ولكن ألا ترى الى أن الناس سيشعرون باستفحال أمر سيدهم وبيصرون الخطر الذي يتهددهم يأخذون حذرهم

تيوكتست

لا يخامرني الريب في ذلك ، واذا كان لهذه الافكار التي تتبع ظلها أن تتحقق يوما فستحقيق بالعلم ضروب من الاضطهادات .

وبخاصة الفسيولوجيا والكيمياء وستكون هذه الاضطهادات من الشدة بحيث يصغر الى جانبها أمر مجلس التفتيش ، وسيناصبها العداء جمهور البسطاء السذج يحدوهم على ذلك غريزة عميقة ؛ وسيعود العلم من جديد الى اللواذ بالخبايا ، والا كنان ؛ وقد يأتي على الانسانية عصر يعرض فيه كتاب في الكيمياء صاحبه للخطر كما كان في العصور الوسطى ، وأشد الاخطار في حياة كوكب من الكواكب هي اللحظة التي يرفع فيها العلم النقاب عن آماله ، وستنبعث اذ ذاك مخاوف وتنفجر ثورات هادمة للعقل وربما قد أدرك البوار في مثل هذا المأزق الضئك آلاف الانسانيات ؛ ولكن لا بد ان تخرج انسانية واحدة سالمة من هذه الغمرة وبذلك ينتصر العقل

والحاجة في هذه الحالة هي أحسن الضمانات ؛ والانسان لا يمكنه أن يستغنى عن العلم ؛ ففي العصور المنحطة - مثلاً في العصور الوسطى - كان الطب هو نصير الروح العقلية ؛ لان المريض يريد الشفاء بأي ثمن ؛ ولا يتيسر ان يتم شفاؤه بدون قليل من العلم ، أما في الوقت الحاضر فان الحرب والآلات والصناعة تستلزم العلم الى حد أن الاشخاص الذين يعملون على مقاومة الروح العامية يضطرون الى تعلم الرياضة والطبيعيات ، والكيمياء ؛ فالعلم يبسط سيادته حتى على أعدائه

(أيدوكس)

ان افترضك انتصار الحكم الاوليجراشي للعقل يجعلك تتصور

صوراً سوداء؛ ولماذا لا ترى أن قدوم إنسانية أسمى يعود بالنفع على الجميع
وأن نفس هذا التفوق ناشئ من أن المزايا أقل توزعاً مما هي في هذه الدنيا
المحزنة؛ لأن الإنسانية قد تجمعت برمتها وتقدست في طراز فذ فاخر؟
ولكنى سأنتظر بفارغ الصبر لأسمع ما تقوله عن تصورك لمستقبل العالم
إلى الملكى وآمل أن يكون أكثر عزاء للإنسان لأنى أشعر بأنى فى
حاجة أب سماوى لينقذنى من جحيمك
(تيوكست)

ما أجل قول القديس بولس «قد يكون الله هو الكل فى الكل»
وأبدع منه قول زينو فون قبله بستمائة سنة «أنه يرى كالجميع ويفكر مثلهم
ويسمع ما يسمعون» ومثل هذه الصيغة لم تتحقق فى العصر الحاضر،
ولكن الحل التوحيدي الذى يكون فيه الكون بحذايره مشاعر
كائن واحد وإحساساته وملذاته سوف لا يكون مستحيلاً إذا
راعينا لانهائية المستقبل، وقد مثات لنا فرنسا فى عصر لويز الرابع
عشر صورة مملكة كل جهودها متجهة إلى إخراج حياة الألة
فاخرة مكتملة النواحي هى حياة الملك، وكانت كل الوظائف
الاجتماعية منظمة تنظيماً قد روعى فيه نخار الملك ولذاته، ونستطيع
أن نتصور حالة الدنيا ينتهى كل شئ فيها إلى مركز شاعر بنفسه
وينحصر الوجود فى موجود مفرد يتحقق به تصور الوحدةانية
الذاتية؛ وقد تكون نهاية التطور الآلهى هذا الموجود العالم بكل
م. ١٠٠ محاورات

شئ والقادر على كل شئ سواء تصورناه ينعم بالجميع (والجميع أيضاً ينعمون به) كما يتصوره متصوفة المسيحيين أو تصورناه فردية قد اعتلت ذروة القوة أو تصورناه خلاصة آلاف الملايين من الكائنات والتوازن والمحصول النهائي لا يكون

وهكذا يبلغ الكون الكمال في فرد قد تلاقت في لانهائيته ملايين. لا تحصى من الحيوانات : حيوات الذاهيين والحاضرين ، والطبيعة الحية بأكملها ستتضافر في خلق حياة متمركزة هي ترنيمة مؤلفة من آلاف الملايين من الاصوات مثل الحيوان الناشئ من ملايين الخلايا العضوية ومثل الشجرة المكونة من ملايين البراعم وسيكون هذا الشعور الأوحدي من عمل الجميع والكل سيأخذون بنصيبهم منه ، وسيكون الكون مثل كثير الارجل اللانهائي قد التحمت فيه كل الكائنات التي وجدت، وكل واحد منها يحيا لنفسه وللجميع معاً، ونحن الآن نشارك في حياة الكون (وهي حياة لم تبلغ الكمال بعد) من طريق الآداب والعلم والفن، والاديان هي الصورة المختصرة العامة لهذه المشاركة ، وهذا هو سر قداستها ؛ ولكن الطبيعة نزاعة الى تألف أمتن ، وهذا التألف لا يبلغ غايته إلا عند ما يجيء هذا الكائن الكامل ، وهذا الكائن لم يوجد بعد لان لنا ثلاثة طرق للتأكد من وجود الكائن وهي اما أن ننظره أو نسمع الناس تتحدث عنه أو أن نشاهد أعماله ، ولم يعرف كائن كالذي

نتحدث عنه باحدى هذه الطرق الثلاث ؛ ولكننا نستطيع أن نتصور
امكان وجود حالة يعيش فيها كل شيء في لانهائية المكان، أما في العصر
الحاضر فإن جزءا قليلا من المادة قد انتظم تركيبه وتكاملت عضويته
وحتى هذا الذى كمل تركيبه قد تماسك تماسكا واهيا ، ولكننا
يمكننا أن نتصور عصر اقد تكامل فيه تركيب كل المادة وتم تماسكها
والتيجمت فيه آلاف الشمس وتضامت فتكون منها كائن اوحده
يشعرونهم ويلتهم بلهواته الحارة الملتهمية نهرامن المسرات والمتع التي
قد تتدفق منه شؤبوبا من الحياة . ومثل هذا الكون الى سيمثل
طرفى وجود كل تركيب عضوى . وهما الطرف الذى يفكر والطرف
الذى ينعم . اما الآن فان الكون يفكرونهم خلال ملايين الافراد ؛
ولكن سيحىء يوم فى المستقبل يتذوق فيه بشبهة فم ضخم اللانهاى ،
وسيتدفع اليه محيط من السرور المسكر ؛ وسيندفع الى الابدية آتى
حياة لانفاد لها غير شاعرة بالراحة ولا بالكلال ؛ ولتجميد هذه المادة
الالهية قد تؤخذ الارض وتخص كالمدر الذى يعجنه الناس دون ان
يفكروا فى النملة أو الدودة المختبئة به ، وكذا الامور ؛ ونحن نفعل
نفس هذا الفعل ، وغرض الطبيعة فى كل خطوة من خطواتها هوان
تنال غاية أسمى بتضحية الفرديات الدنيئة ؛ وهل يعبا القائد أو
رئيس الحكومة بحياة الساكنين الذين يضحى بهم ؟
وان وجود كائن فرد قد اجتمعت فيه كل مناعم الكون يشد

ازره عدد لانهاى من الافراد تستشعر السرور فى ذلك . أقول
ان وجود مثل هذا الكائن لا ينافر سوى فرديتنا السطحية . وليست
الدنيا سوى سلسلة من الضحايا البشرية ويمكن تلطيف الم التضحية
بالسرور والاستسلام . ولقد كان أصحاب الاسكندر يعيشون
على الاسكندر وينعمون بالاسكندر . وقدمت بالمجتمع احوال
كانت تنعم الناس فيها بلذات اشراقهم ويجدون فيها سرورهم
ويقولون « امراؤنا » ويجعلون مجد امرائهم مجداهم وأن الحيوانات
التي يتغذى بها الرجل العبقري أو الرجل الفاضل ينبغي
لها ان تكون مغتبطة فرحة اذا قامت الخدمة التي تؤديها . والامور
بحوايتيها فاذا صار من الضروري في احد الايام الاكثار من
عمليات تشریح الاحياء لاستكشاف اسرار الطبيعة الحية العظيمة
فان اتميل مخلوقات آتية مكلفة بالازاهير لتقدم نفسها وقد اخذتها نشوة
التضحية وبذل النفس . وان قتل ذبابة بلا فائدة عمل حقيق بالوم .
ولكن الذى يضحي لغايات مثالية ليس له حق في الشكوى
ومصيره ازاء اللانهاى جدير بان يحسد عليه . والكثيرون
يقضون نحبهم دون ان يتركوا اثرا في تشييد برج الابدى . وان
تضحية كائن حي من اجل انانية آخر لعمل مستنكر . ولكن
تضحية كائن حي لغاية تريدها الطبيعة تضحية عادلة ، واذا توخينا
الدقة فان الرجل الواقع في قبضة الانانية يأتى عملا وحشياً بأكمله

الاحم؛ وانما الرجل الذى يبذل قصارى جهده فى الخير والحق هو الذى يملك هذا الحق ، لأن التضحية هنا مبذولة للمثل الاعلى ؛ والسكائن المضحي به له مكانه الصغير فى العمل الخالد الباقي وهذه مرتبة يقصر عن نيلها الكثيرون ؛ وقد كان السلف الصالح يعتبرون ذبح حيوان للاكل والتغذية عملا دينيا ، ومثل هذا الذبح الذى تدفعنا اليه ضرورة مطلقة كان فى رأيهم ينبغى أن يستر أمره ويغضى على حقيقته بباقيات الازاهير والاحتفال الدينى

ويجب أن تفكر الا كثرة وتستمتع بالحياة بطريق الانابة والتفويض ؛ وان فكرة العصور الوسطى فى صلاة الناس لمن لا وقت عندهم للصلاة لفكرة عادلة موفقة ؛ لأن الا كثرة منهمكة فى العمل والافلية تؤدى عنها تكاليف الحياة السامية ؛ وهكذا الانسانية ولقد كانت نتيجة العمل الغامض الذى قام به آلاف المزارعين من خدمة دير من الاديار معبداً صغيراً على الطراز القوطى وسط واد جميل تظله أشجار الحور الفارعة يتيممه الاتقياء البررة ست أو ثمانى مرات فى اليوم ليتغنوا اناشيد الابدى ؛ وكان هذا أسلوبا بديما فى العبادة ولا سيما عندما كان بين المتنسكين مثل القديس برنارد وروبير دى توى والاب يواكيم ، وقد كان هذا الوادى وتلك الامواه وهاتيك الاشجار والصخور تود أن تهتف باسم الله ولسكنها كانت خرساء فنحها الدير مقولا ؛ أما اليونان وهم شعب اعرق فى النبل فقد

كانوا أبلغ أداء لذلك وافصح عنه تعبيراً بالقيثارة والعباب الرعاة ،
وسيكون ذلك أسمى في أحد الأيام عندما يخلف الديرمعمل كيمياء او
طبيعة ، ولكن في أيامنا هذه فان آلاف المزارعين الذين كانوا في الايام
السالفة عبيدا ونالوا حر يتهم قد انطلقوا من اجل ذلك الى المناعم
المقيدة دون ان يخدموا المثل الاعلى في نفس الارض التي اقيم فيها
المعبد السالف الذكر ، ولا يطهرهم قليلا سوى الضريبة المفروضة
على الارض لانها تجمعهم ينصرون غرضا أسمى

ولا بد أن يعيش البعض السكلى . ولو غير ذلك لا وفرت الدنيا من
الناس ، والمصرى من رغايا الملاك شفرم الذى جاد بروحه وهو يبنى
الاهرامات قد قضى حياة افضل من الذى أمضى حياته سدى تحت
اشجار نخيله وهذا هو أساس مجد الناس وهم لا يتطلبون غيره ، والاناية لا
تقنعهم أبدا ، وجل غرضهم أن يحتنى غيرهم الثمرة اذا حرموا هم من اجتنائها
وهم يقدمون على الموت راضين لاجل مجد رئيسهم . أى شئ
لا يعود عليهم بالنفع المباشر . وانما اتكلم هنا عن الناس بمعنى
الكلمة أى عن الشعب غير المفكر المستسلم لغرائزه والذى لم يعلمه
التفكير بعد ان اكبر حماقة يمكن ارتكابها هى أن يعرض
الانسان نفسه للقتل لاية غاية كائنة ما كانت

وانى فى بعض الاحيان اتصور أن الله هو العيد الداخلى
العظيم للكون وانه ذلك الشعور المتراعى الفياض الذى تنعكس فيه

كل الاشياء ويتجاوب صداها . وكل طبقة من المجتمع انما هي
دواليب وذراع رافعة في هذه الآلة الضخمة . ومن ثم كان لكل
انسان فضائله ونحنا كلنا وظائف للكون . والواجب هو أن يقوم
كل منا بعمله خير قيام . وان فضيلة الشعبى لا يجب أن تكون
هى فضيلة النبيل . وما يكمل به السيد الماجد قد يكون نقصا وعابا
فى الرجل من دهاء الشعب . وفضيلة كل طبقة قد فرضتها
مستلزمات الطبيعة . والحكومة التى لا توجد فيها طبقات اجتماعية
انما هى خارجة على العناية . ولا يعنينا فتىلا ان القديس فنسنت
دى بول لم يكن كبير الروح وما كانت استقامة السلوك لترفع
من شأن رافائيل . والقوة القدسية المستقرة فى الجميع تتجلى فى
اهل الصلاح والاستقامة وفى الفنانين والعلماء . ولكل دوره الذى
يلعبه . ولقد كان واجب جيتى ان يكون أنانيا لاجل عمله . وان
لا اديية الفنان السامية هى نفسها ضرب من ضروب الفضيلة
السامية اذا كانت تساعد على انجاز مهمته الالهية الخاصة الموكولة الى
كل انسان فى هذه الدنيا

اما انا فانى اتذوق الوجود قاطبة بمثل هذا الشعور العام الذى
يحملنا مثقلين بالحزن فى المدينة الحزينة ومنشرحى الصدر فى
المدينة الفرحة ، وأنا بذلك اقاسم الشهوانى شهواته والخليع المتنعم
خلاعاته والدينوى دينويته ، وشارك الرجل الفاضل فى طهارته

والعالم فى تأملاته والناسك فى شدته وصراجه ومخالجه نوع من
العطف الرقيق المستعذب فخالى شعورهم ، وان استكشافات العالم
ملكى ونصيبى ، وانتصارات الطموح عيد لى ، وسيغمرنى الحزن .
اذا شعرت الدنيا باى نقص وحاجة لانى شاعر بكل ما فيها ، وهى
الوحيد هو أن الجيل الحاضر من الانحطاط بحيث لا يعرف كيف
يستمتع ، ومن ثم ألود بالماضى — بالقرن السادس عشر وبالعصور القديمة .
فكل ما كان جميلاً محبباً عادلاً نبيلاً هو جنة لى . وانا بهذه الفكرة
أتحدى الكوارث ان تلم بساحتى . وأنا احمل معى الحديقة الساحرة .
من افانين افكارى

(فيلا ليت)

لقد حاولت ان تظهر الصور التى يمكن ان نتصورها عن شعور
عام لا يكون اسمى من الشعور الذى تمثله الانسانية . وقد قيل لى انك .
تعرف طريقة تجعل خلود الافراد امراً ممكن تصوره

(تيوكست)

الاحسن من ذلك ان تقول « بمث الافراد » وأنانى هذا الصدد
أخالف تصورات برعت فيها العبقرية اليونانية . وان كانت هذه
التصورات رائعة من ناحية الشعور والمثل الاعلى . وفى اعتقادى ان
افلاطون لا يلتفت إلى رأيه عند ما يذهب الى ان الموت خير وأنه
الحالة الفلسفية بطبيعته ، وليس فى الحق ما قاله فى « فيدون » ان كمال

الروح هو في الانفلات اشدهما يمكن من البدن، والروح بدون جسم
وهم وخيال لا ننا لم نر قط هذا الطراز من الوجود
نعم انى اتصور امكان البعث ، وانا اقول على الدوام مع ايوب
«ان هذا الامل كامن في صدرى» واذا حدث فى آخر ادوار التطورات
المتعاقبة أن جمع العالم فى واحد صمد فان هذا الكائن سيكون هو الحياة
الكاملة للجميع وسيبتعث فى نفسه حياة الكائنات الذاهبة ، واذا
كنت تؤثر ذلك - ان كل ما وجد سيعيش فى صدره ، وعندما يجمع
الله بين الكمال والقدرة الفاعلة ، أى عندما تجتمع القدرة على كل
شيء العالمية فى يد كائن خير مستقيم فان هذا الكائن ستتجه رغبته
الى احياء الماضى ليحوم مابه من مظالم ، والله سيوجد ، وسيزداد
وجوده تحقيقا واستقراراً ، وكلما عظم نصيبه من الوجود ازدادت
عدالته ، وسيبلغ ذروة الكمال فى اليوم الذى يشعر فيه كل من اعان
على اتمام العمل المقدس انه تم ويرى الجزء الذى أتمه منه ، وحينئذ يستظل
عدم المساواة الابدية للكائنات مختوما عليها الى الابد فمن لم ينصح
للخير والحق سياتى فى هذا اليوم جزاء وفاقا لاجترائه ؛ فلا ينال
شيئا ، ولا يجب ان يمترض على ذلك بان المكافأة التى
تجىء بعد ملايين السنين مكافأة قليلة القيمة فانه سواء رقاد
ساعة ورقاد ملايين السنين . واذا منحت لنا هذه المكافأة التى
أصورها لنفسى فستبدو لنا كأنها جاءت عقب ساعة الموت . وإن

أنسب كلمة تكتب على قبر عاشق المثل الاعلى أو على قبر المسيحي
هى كلمة « ينتظر بعثاً مباركا »

والدنيا بدون الله شئ شديد الفظاعة والنكر . وهى كذلك
تتراءى لنا فى هذه الايام . ولكنها لاتدوم على هذه الحال . وبعد
فترات القساوة والاثانية التى تعرض للموجود السائر فى طريق
الرقى ربما سيتحقق حلم ديانة الوحدة فى يظهر شعور سام ينصف
الضعفاء وينصر الصالحين . وإن الالهى يقول « هذا واجب الوجود
ولذا وجد » أما نحن فنقول « أنه إذن سيوجد » ولهذا التعليل
نصيبه من الحق لا أننا قد رأينا أن أحلام الشعور الاخلق يمكن
أن تتحقق يوماً ما . ويمكننا إذن أن نتصور شعوراً أعما قد استغرق
الجميع حتى السابقين ، وسينظمهم بمقدار ما أدوا للخير والمطلق من
خدمات ، ولكل حجر قيمته فى اهرام الخير الذى رفعتة جهود
الكائنات المتواترة ، ولا يزال المصرى فى عهد الملك شفرم الذى
تحدثنا عنه منذ قليل موجوداً فى الحجر الذى وضعه ، وكذلك
سيكون شأن الرجل الذى اشترك مع غيره فى عمل الأبدية ، ونحن
نحيا بقدر الجزء الذى قنا به فى ابتناء المثل الاعلى ، وعمل الانسانية
هو الخير ، والذين عملوا على انتصار الخير سيضيئون مثل النجوم .
وحتى إذا كانت الارض فى احد الايام لاتصلح إلا لتكون لبنا
لبناء عمارة فى المستقبل فانتا سنكون ماتكونه القشرة الجيولوجية

في كتلة الحجر المعدة لا بتناء معبد ، وهذا الثلاثي الفصوص الحقير
الذي نرى آثاره مسطورة في سمك حيطاننا يحيا هناك بمقدار ضئيل .
إذ يكون جزءاً من مسكننا

ايدوكس

الخلود الذي تتصوره خلود صوري لا يتجاوز أبدية العمل .
ولا يدل على خلود الشخص ، وإن تأثير يسوع اليوم لا عظم بكثير
من تأثيره عندما كان جليلياً غامض الشأن ، ولكنه مع ذلك ليس
من الأحياء

تيوكتست

إنه لا يزال حيا ، وشخصيته لا تزال باقية ، بل هي أعظم مما كانت
وأن الإنسان ليحيا حيث يعمل ، ومثل هذه الحياة أنفس من حياة الجسد
لأننا نضحى بالثانية للأولى ، ولا يعزب عن فكرك إنني لا اتحدث
هنا عن الحياة في احترام الغير وتقديرهم أو في الشهرة والبقاء في الذاكرة فإن
مثل هذه الحياة ليست في الحقيقة كافية ، بل هي عرضة لالوان من
الغب ، وخير الناس هم من تجنبوها ، وتيمور لك ابعده شهرة من
كثير من الصالحين المحبوسين ، ولم ينل مرقس اورلياس قسطه
الذي يستحقه من الشهرة الا لأنه كان امبراطورا وكتب تأملاته ،
والتأثير الصادق هو التأثير الصامت المستخفي ، وليس معنى ذلك
ن حكم التاريخ باطل في باطل وإنما هو مخطئ اخطأ كله في النسبة وربما

كان بين المجهولين من هو أعظم من الاسكندر ، وربما كان قلب المرأة التي لم تقل طول حياتها كلمة قد احس أحسن من شاعر تغنى . ارق الاشعار واعذبها . وانما اتحدث هنا عن الحياة من ناحية التأثير . أو كما يقول المتصوفون عن الحياة في الله وان الانسان ليخلد ببقائه في ذاكرة الله والمكانة التي يشغلها الرجل الفاضل في الاحساس المطلق وذكره التي يحتفظ بها هي الحياة الصادقة ، ومثل هذه الحياة خالدة باقية ، ولا مرية في انه من التشبيهات تنسب الى الله صفات شعور مشابهة لشعورنا ؛ ولكن استعمال الفاظ المشبهة في الفقه امر لا يحصى عنه ، وليس فيه من الضرر أكثر مما في استعمال اى مجاز او استعارة ، وسيمتنع علينا التعبير باللغة اذا غلبنا في التدقيق

(ايدوكس)

هذا مفهوم ، ولكنك لم تفسر لنا كيف يمكن ان نتحدث عن الوجود الحقيقي بدون شعور مدرك

(تيوكست)

ربما يكون الشعور المدرك صورة ثانوية للوجود . ولسنا نفقه . معنى لهذا التعبير عندما نطلقه على « الكل » و « الكون » و « الله » . والشعور المدرك يستلزم وجود حد . ومعارضة بين الانا والالانا . وهذا يناقض الالاهائي وان الابدى هو الفكرة . والمادة شئ ونسبي من كل الوجود .

ولست فى الواقع هى الشئ الكائن . وانما هى اللون الذى يستخدم فى التصوير والرخام الذى يستعمل فى النحت والصوف المستعمل فى التوشيه والتطريز . ولا يمكن انكار القدرة على ايجاد ما كان من جديد . ورد كل ماتم وقوعه . ولا تراث فى ان اقول بان كل تأ كيد فى هذه المسائل هو ضرب من اليقين ، واليقين يتجاوز حدود التجربة والمشاهدة ولست اقول انه يناقضها ، ولكن بعد كل ذلك هل املنا متنفج وهل رغبنا مفرضة الاوحاشى لله ان تكون كذلك ، ونحن لا نطلب مثوبة وانما نريد ان نكون وان يتسع مجال معرفتنا وان نهتدى الى سر الدنيا الذى بحثنا عنه بشغف ومستقبل الانسانية التى اولعنا بها ، وامل الا يكون فى هذا بأس ولا حرج ، والذين يرون الوجود واجبا لالذة لهم الحق فى ذلك ، وأنا لا اطالب بحقي فى الخلود الشخصى وإنما اريده شيئين اولا الا تذهب التضحيات التى قدمتها للصالح والحق سدى ؛ ولست اريد ان اتقاضى لقاءها عنما وانما اريد ان تكون قد عادت بالقائدة واجدت بعض الجدوى ؛ وثانيا يسرنى السرور كله ان يعرف احد الناس القليل الذى قمت به ، واريد تقدير الله . ولا اطلع الى اكثر من ذلك . فهل فى هذا غلو وتطوح ؟ وهل تعذل الجندى الجائد بروحه لاهتمامه بنهاية المعركة ولحرصه على ان يعرف رضاء قائده عنه ؟

ان الاحساس يبطل بموت العضو الذى يتعلق به . ويختفى

التأثير بذهاب المؤثر واذا تحلل الذهن فلا شعور بالمعنى المؤلف
للكلمة . ولكن حياة الانسان في المجموع العام والمكان الذي يشغله
فيه ونصيبه من هذا الشعور كل ذلك لاصلة له بالعضوى لأنه خالد .
باق . والشعور علاقة بالمكان لا على انه مقيم في نقطة خاصة ولكن
على انه شاعر في مكان محدود . اما الفكرة فليست لها مثل هذه
العلاقة . وهي مجردة من المادة تجريداً بحتاً ولا سلطان عليها للزمن
ولا للموت . والمثل الاعلى هو الخالد ولا شيء سواه وكل شيء
زائل ما خلا وما خلا ما يعمل من اجله وما يخدمه
فلنتأس نحن الضحايا المعذبة فانه سيخاق من دموعنا اله

اتيفرون

للعلماء الاثباتيين اعتراض هام على ماجلورته . وايضا على كثير
من الآراء التي بسطها فيلايت وتيوفراست . لقد عزوت للكون
والمثل الاعلى مشيئات واعمال لم يعدها الناس حتى الآن الا
للكائنات العضوية . ولا شيء يبيح لنا حق اعتبار الكون كائنات
عضوية ولو على شكل احط انواع الحيوانات النباتية . والا فإين
اعصابه ؟ واين مخه ؟ ولم يثبت قط وجود شعور او احساس في
احط الدرجات في كائن مجرد من المخ والاعصاب او بصريح العبارة
من التركيب المادى

تيوكتست

اعتراضك مقبول حاسم ضد وجود الارواح المنفصلة والملائكة .
ولكنه ليس حاسما من ناحية افتراض قوة جاهدة في صميم الكون .
النبض الغريزي ضرب من خصائصها ومبدأ اول مثل
الحركة نفسها . ولم نستطع قط ان نضرب للكون مثل الحيوان
الا من طريق المجاز لان الحيوان يدل على نوع وكثرة من الافراد
والا لكان يوجد اذن اكوان عدة وتدل كل حقائق الطبيعة
العامة على أن هذه الكتلة اللانهائية تعمل على ايجاد نوع من
الرشح العام الذي نسميه شعورا لعدم وجود اسم أنسب وبسبب
نزعة الى مذهب المشبهة لامناص منها . وكل ما في الطبيعة في حركة .
ولا مجال للشك في ذلك . ولكن الحركة لها سبب وغاية فسيبها
المثل الاعلى وغايتها الوعى

فيلاليت

في أكثر الاحايين أقول لنفسي انه لو كانت غاية الكون
سيرة لهفانة معجلة مندفعة كالتى نفترضها لاتجاه العلم لما كان ثمة
من أزهار ولا أطيوار بهيجة ولا أفراح ولا ربيع . لان هذا كاه
يدل على اله اقل شغلا وهما مما نعتقد . اله يتسلى ويلهو ويستمتع
بحالة كاملة كل الكمال

ايدوكس

سأذهب أبعد مما ذهبت . وسأزعم أن وسط الكون شيئاً مستقراً . وهو مكان للأفكار كما يقول ملبرانش . ونحن لا نفتأ نعود الى صيغ هذا المفكر الكبير كلما تناولنا العلاقة بين الله والكون وبين الفرد واللامحدود . صدقوني ان الله ضرورة مطلقة . ان الله سيكون والله كائن . فمن ناحية الواقع هو سيكون . ومن ناحية المثل الاعلى هو كائن . « الله فى الكينونة والصيرورة معا » . ولا يمكن ان ينمو ويترقى الا ما هو كائن . وكيف نتصور ترقياً بادئاً من لا شيء ؟ ولو لم يجعل الاب السرمضى الهاوية خصبة مشمرة لظلت راكدة طوال الابد . فالتطور يصحب الوجود والكون . والحركة تلزم المحرك كالثقب الثابت وسط العجلة . وقد أجاد تيوكست فى اثباته أن الغاية الوجدانية هي وحدها التى تساعد على تحقيق أبعد افكارنا اعراقاً فى مسألة ضرورة عدالة اسمى للمرء وللإنسانية . ولنضيف الى ذلك انه اذا كانت الحركة قد وجدت من الازل فانتا لا نستطيع ان نتصور كيف ان الدنيا لم تصل الى الراحة والرتابة والكمال . وليس شرح كيف أن التوازن لم يحفظ حتى الآن ايسر من اظهار كيف اختل واضطرب . واذا كان المهدف الذى تحدثنا عنه بالامس قد استمر يوا الى طلقاته منذ الازل لكان الآن قد أصاب المهدف

(اتيفرون)

نحن مشرفون الآن على المتناقضات الكاتنية. تلك الهاميات الفاعرة
فى النفس الانسانية التى نحار فيها .. ومادنا قد اقتربنا منها فلنقف
فان العقل واللغة يتعلقان بالمحدود ونقلهما الى غير المحدود يشبه كل
الشبه محاولة قياس حرارة الشمس اوجوف الارض بقياس الحرارة
العادى . والنمو الخاص الذى نشهده ليس سوى نموذرة ؛ ولكننا
نريده ان يكون تاريخ المطلق ونحاول ان نجعل الابدية مسرحه ومجاله
ونرتكب نفس الخطأ الذى يعرض لنا عند ما نحاول حل رموز
اوراق بردى « هر كالي نام » حيث تقابل الاوراق المختلفة يجمعنا
ناحق حروفها باحدى الصفحات فى حين انها متصلة بصفحة اخرى
(ايدوكس)

لنشكر تيوكستست لانه شرح لنا احلامه كلها ، « وهكذا
يعبر القساوسة عن أنفسهم ولوان هناك اختلاف فى الالهجة » ولا يتجنب
الاشتغال بهذه المسائل سوى اهل العقول السطحية وهم يحبسون
أنفسهم فى مغارة وينكرون وجود السماء ؛ ونفس هؤلاء الناس كانوا
يقولون لكونولومبس وهو يرمى ببصره الى افق البحر صوب الغرب
« أيها الاحق المسكين انك تبصر جيدا انه لا شىء وراء ذلك »
(فيلا ليت)

بعد سنوات قلائل اذا امتد بنا العمر وبقيت الدنيا يمكن ان

تعاود البحث في هذه المسائل ونرى كيف تعدلت طريقة نظرنا الى
الكون ، ومما يطيل الاسف اننا لانستطيع - كما في الاسطورة التي
رواها توماس دى كانتمبريه - ان نعين مكانا للقاء الذين سيدركهم
الموت من اقدموا النايانا عن حالة الاشياء الحقيقية في الحياة الاخرى
(ايدوكس)

اعتقد ان شهادة الميت في مثل هذه المسألة قليلة القيمة ، كما ورد
في المثل « انهم لا يقتنعون ولو قام احد الموتى » أما من ناحية
الفضيلة فان كل انسان سيجد التأكيد الكافي بمناجاة قلبه
(تمت)

الفهرس

	صفحة
تصدير	— ٣
مقدمة المعرب	— ٨
الاهداء	— ٤٥
مقدمة المؤلف	— ٤٨
المحاوره الاولى	— ٥٨
, الثانية	— ٩٤
, الثالثة	— ١١٩

استدراك

نستدرك هنا اكثر ما وقع في طبع الكتاب من الاغلاط ونرجو القارى ان يستدركها هو الآخر في مواضعها

صفحة	سطر	خطأ	ضواب
٣	٨	الروية	الرؤية
٤	٢	ملاّت	انتظمت
٤	٢	ملاّت	ملاّت
٤	٨	عريتهم	غريتهم
٦	١٨	ميدان	ميدانه
١٠	٩	يشون	يننون
١١	٦	بآثار	باطار
١٢	٩	بمعايرهم	بمعايرهم
١٥	١٥	غوراه	حقا
٢١	١٢	شليخ	شليج
٢٣	٣	طل	باطل
٢٦	٨	أديب	أريب
٣٠	١٨	الحالين ان	الحالان
٣٢	١١	ثانيه	ثانية
٣٤	١٩	ابرا	أثرا
٣٥	٣	أوراقا	أوراق
٤١	٨	الاستعمال	الاستعمال
٤٥	٣	تتجاذت	تتجاذب
٤٥	١٨	ترتكبها	ترتكبها
٤٨	١٨	اختصرت	اقتصرت
٥٠	٨	يحيي	يحييا
٥٣	٥	غزارة	غرارة
٥٣	١٧	عيلها	غليلها
٥٤	١٨	الزهد	الزهو
٥٤	١٨	للإصلاح	للصلاح

صفحة	سطر	خطاً	صواب
٥٥	٢	مرذولة	مرذولة
٥٥	١١	قاله	ماقاله
٥٩	١٧	التكافؤ	التكافؤ
٥٩	١٨	تأكدي	بتأكدي
٦١	١٠	التمرد	التمدد
٦٢	٣	الذاتي	الداني
٦٢	٧	على	أعلى
٦٢	٩	يقفوا	يقفو
٦٤	١	ستعرض	نستعرض
٦٤	١٦	مفهوم	المفهوم
٧٧	٤	تقعد	تعقد
٨٥	١٧	الكافي	الكائن في
٨٩	١٧	المدرسة الجديدة	المدرسة المادية الجديدة
٩٥	١٣	بدأ	بدء
٩٦	١١	فناؤهما	فناءه
١٠٣	٦	يملاها	يملؤها
١٠٤	١٣	تمث	تمة
١٣٠	٦	كنفس	لنفس
١٣٠	٧	لليرا	كيرا
١٤٥	٥	الى الملكى	الملكى
١٤٥	٦	اب	الى اب
١٥٤	٤	تترى	تراءى
١٥٥	١٦	المجهولين	المجهولين
١٥٧	١٢	شيشين	لشيشين

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٨١ / ١٩٩٨

I. S. B. N. 977 - 19 - 0084 - 1

